التوسل

بين

الكتاب والسنة وأقوال الأئمة

أبو الفضل أنس بن عبد الله
الجزيري الأثري

أطلس للاستيراد والتصدير
طبع نشر توزيع

التوسل

بين

الكتاب والسنة وأفعال الأمة

أبو الزهراء أويس بن عبد الله
المجتبى الحسيني

أطلس للاستيراد والتصدير
طبع - نشر - توزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتـــــــــاب: التوسل بين الكتاب والسنة وأفعال الأمة

رقـــم الإيـــداع: ٣٢٦٦ / ٢٠١٤

الترقـيم الـدولي: ٢-٥٦-٥١٦٦-٩٧٧-٩٧٨

ســـنة النـــشر: ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الناشـــــــر: أطلس للاستيراد والتصدير

طبع - نشر - توزيع

المطـــــــابع: ٣ ش مدكور - المنطقة الصناعية - العباسية

تليفون: ٢٤٦٧٠٥٥٨ - ٠١١١٠٢٠٧٣٨٣

التوزيـــــــع: ش الدواخلي - أمام باب جامعة الأزهر - الحسين

تليفون: ٠١١١٠٢٠٧٣٧٦

حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الرسالة

الحمد لله حمداً كثيراً كما هو أهله نستغفره ونستهديه، والصلاة والسلام على خاتم الرسل؛ من لا نبي بعده، صاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود، أظهر الله به الدين، وأخرس به ألسنة الضالين، ورضي الله عن آله وصحابته مصابيح الدجى، وعلى السالكين نهجهم بإحسان عدول الأمة، الذين ينفون عن الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آلعمران: ٨].

وبعد:

فالداعي إلى كتابة هذه الرسالة هو ما تتداوله الألسن في الإنكار على ما تشتمل عليه قصائد مديحه ﷺ من التوسل برسول الله ﷺ وندائه فضلاً عن الاستغاثة، أو الاستجارة به ﷺ لطلب الشفاعة منه، وألفاظ تشعر بأن إليه المفزع والملاذ عند الكرب، وكلمات من أمثال هذه الكلمات، بعد اتفاق المسلمين على أن التصرف والغوث وقضاء الحوائج وتفريج الكربات، وما أشبه ذلك هو لله وحده خلقاً وإيجاداً واستقلالاً بقدرة كن.

واتفاقهم على أن ما ينسب إلى العباد من تلك الكلمات، هي نسبة مجازية من الإسناد إلى السبب، كالذي جاء في الأحاديث من الحث على تفريج كربة المؤمن والتيسير على المعسر وإعانة المستعين، حيث إن الكل موقن بأن المفرّج والمعين والميسر هو الله تعالى، وأن العبد ليس إلا سبب في ذلك.

وقد حاولت في هذه الرسالة -بغاية الإيجاز- الكشف عن هذه الأمور بما أعتقد أنه الصراط السوي.

وقد رتبت موضوعاتها في فصول أرجو أن يفتح الله بها القلوب وتشرح بها الصدور.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الفصل الأول
أنواع التوسل

الأصل في التوسل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾[1] .

وقصر البعض الوسيلة في الآية على التوسل بأسماء الله وصفاته وعلى التوسل بالأعمال الصالحة، ولكن الآية بإطلاقها وبما ورد من أحاديث وآثار تدل على عمومها وشمولها للتوسل بالأعمال الصالحة والتوسل بغيرها كقول عمر في سقياه بالعبّاس رضي الله عنهما « واتخذوه وسيلة إلى الله»[2].

وورد في الترمذي وغيره ما علمه ﷺ للضرير من توسل وسيأتي ذكر الحديث، وفي تفسير الجلالين عند قوله تعالى: ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾[3] أي يستنصرون على الذين كفروا بقولهم « اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان»[4]، وغير ذلك كثير في كتب السنة.

---

(١) الآية ٣٥ من سورة المائدة.

(٢) أخرجه الزبير بن بكار في الأنساب.

(٣) الآية ٨٩ من سورة البقرة.

(٤) روى من طرق عن ابن عباس ﷺ فرواه الحاكم في (المستدرك) والبيهقي في (دلائل النبوة) وأبو نعيم في (دلائل النبوة) ووجه الدلالة في هذا الأثر أن الله تعالى أقرهم على توسلهم

وأنواع التوسلات كثيرة:

١- منها التوسل باسم من أسماء الله تعالى.

كما في حديث ابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ دعا فقال: « اللهم إني أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الأحبّ إليك الذي إذا دُعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت، وإذا استرحمت به رحمت وإذا استفرجت به فرّجت » [(١)].

وروى أصحاب السنن الأربعة عن بريدة ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول: « اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد » فقال: « لقد سألت الله تعالى بالإسم الذي إذا سُئل به أعطى وإذا دعي به أجاب » وفي رواية : « لقد سألت الله باسمه الأعظم » حسنه الترمذي.

والأحاديث في الباب كثيرة ويعضد بعضها بعضا وكلها امتثال لأمر الله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

٢- ومنها التوسل بالعمل المأمور به (الأعمال الصالحة):

وهو على قسمين:

الأول: فعل هذا العمل والإتيان به كاملا مع الإخلاص التام وتجنب ما يفسده رجاء قبوله، توسلا بذلك إلى رضا الله سبحانه والفوز بما وعد به عباده فضلا ورحمة.

بالنبي ﷺ وامتن عليهم بقبول توسلهم وإنما ذمهم على جحودهم وكفرهم بالنبي ﷺ بعد ظهوره مع ما شاهدوه من بركة التوسل به ﷺ .

(١) سنن ابن ماجة- أبواب الدعاء- باب اسم الله الأعظم.

وهذه الأعمال كما تشمل الصلاة والصدقة والحج والعمرة فهي تشمل أيضاً محبته ﷺ وإظهار المحبة له والفرح به والثناء عليه ومدحه وزيارته في قبره والتبرك بآثاره وكذلك كل الصالحين من أمته.

وإلى هذا القسم يرجع الكثير من صور التوسل الأخرى.

الثاني: أن يدعو الله بعمله إذا وقع في شدة كما وردفي الصحيحين[1] من توسل أصحاب الغار الثلاثة : سدّت باب الغار عليهم صخرة فتوسل كل منهم إلى الله بأحب ما عمل من عمل صالح فانفرج عنهم باب الغار.

وليس هذا من القسم الأول فإنهم لم يعملوا هذه الأعمال في الغار بل دعوا بها متشفعين إلى الله بعملهم السابق.

وكلا القسمين مما تشمله الآية الكريمة ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

٣- ومنها التوسل باسم النبي ﷺ .

فقد روى ابن السني في كتابه (عمل اليوم والليلة) أن ابن عمر رضي الله عنهما حدرت رجله فقال: « يا محمداه » فقام ومشى، وروى فيه أيضاً مثل ذلك عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم في باب (ما

---

(١) أخرجاه عن جابر، صحيح البخاري: كتاب الإجارة في الإجارات باب من استأجر فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد (ح٢٢٧٢).
صحيح مسلم : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (ح:٢٧٤٣).

يقول إذا خدرت رجله)[1] وأشار إلى ذلك أيضاً الشيخ ابن تيمية في كتابه (الكلم الطيب) الفصل السابع والأربعين.

وجاء في صحيح مسلم أنه ﷺ عند قدومه إلى المدينة في هجرته صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق الغلمان في الطرق ينادون (يا محمد يا رسول الله)[2].

وذلك تعبيرٌ عن محبتهم له وفرحهم وسرورهم بقدومه عليهم، وغير خاف أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره، فيكون ذكره باللسان مع استحضار محبته بالقلب والصلاة عليه ﷺ راجعاً إلى النوع الثاني من التوسل (بالأعمال الصالحة).

٤- **ومنها التبرك بآثاره ﷺ** : عرقه ودمعه ولعابه وشعره وثيابه ومشاهده وغير ذلك.

وهذا سلوك المؤمنين في كل عصر يقول الله سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة:٢٤٨].

ذكر المفسرون أنهم كانوا يحفظون في هذا التابوت بعض آثار أنبيائهم-

---

(١) (عمل اليوم والليلة) أحاديث أرقام ١٦٧،١٦٨،١٦٩،١٧١.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الزهد باب حديث جابر وقصة أبي اليسر حديث رقم ٢٠٠٩.

كعصا موسى ونعلاه وغير ذلك- وكانوا يقدمونها أمامهم في معاركهم مع أعدائهم يتبركون ويستنصرون الله به فينصرهم.

وتبرك الصحابة والتابعين برسول الله ﷺ وبآثاره أكثر من أن يحصى، وكان ﷺ يعلمهم ذلك ويقرهم عليه، فعندما حلق الحلاق رأسه الشريف أعطى ﷺ شعره أبا طلحة وقال له (اقسم بين الناس) في رواية الترمذي وفي رواية مسلم (فجعل يعطيه للناس).

بل روى البيهقي في (شعب الإيمان) والطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر ﷺ بإسناد حسن قال: « ... وكان رسول الله ﷺ يبعث إلى المطاهر فيؤتى بالماء فيشربه- أو قال فيشرب- يرجو بركة أيدي المسلمين»[1].

وهذا الفعل من رسول الله ﷺ ليعلمنا أن تبركنا لا يجب أن يكون قاصراً عليه وحده بل يشمل كل الصالحين من أمته.

٥- ومنها الإقسام على الله تعالى بالنبي ﷺ أو الصالحين.

كأن يقول: « اللهم إني أقسم عليك بالنبي ﷺ إلا ما قضيت حاجتي »، أو « أسألك أو أتوسل إليك بفلان إلا ما شفيت مريضي » على معنى أسألك مقسما به عليك.

وهو ليس إقساما بمعناه الحقيقي فعامة المتوسلين لا يقصدون ذلك؛ بل هو تأكيد لتوسلهم بالنبي ﷺ، أو غيره مع تعظيم رجائهم في الله سبحانه أن يقبل الدعاء.

---

(١) شعب الإيمان (٢٠) باب في الطهارات (ح٢٧٩١) جـ٣ ص/٣ ط: العلمية، مجمع الزوائد جـ١ ص٢١٤، وقال الهيثمي: (رجاله ثقات).

وقد صحّ أن رسول الله ﷺ قال: « ربّ أشعث أغبر ذي طمرين ينبو عن أعين الناس لو أقسم على الله لأبرّه» رواه الحاكم في مستدركه[1] وصححه.

أما النهي الوارد عن الحلف بغير الله سبحانه فهذا في القسم الحقيقي وقد صح عن رسول الله ﷺ قوله للأعرابي « أفلح وأبيه إن صدق»[2] وفي حديث الرقية: « .. كل فلعمري ... »[3]، وعند مسلم مرفوعاً « وأبيك لتُنبَّأنَّه»[4] ويقول أبو بكر الصديق في قضية السارق « .. وأبيك ما ليلك بليل سارق»[5]، فكل ذلك تأكيد لا يقصد به حقيقة الأقسام كما بينه الفقهاء والمفسرون[6].

٦- ومنها التوسل بالنبي ﷺ أو الصالحين بطلب الدعاء منهم.

كأن يقول: يا رسول الله إني أطلب منك أن تدعو لي بقضاء حاجتي، وهذا لا شيء فيه بإجماع المسلمين في حياة النبي ﷺ .

---

(١) عن أبي هريرة. كتاب الرقاق ح (٧٩٣٢) وأقره الذهبي على تصحيحه المستدرك ٤/٣٢٨.

(٢) سنن أبي داود- كتاب الصلاة ح٣٩٢، بإسناد صحيح.

(٣) « كل فلعمري لمن أكل برقية باطل لقد أكلت برقية حق » .
سنن أبي داود البيوع والإطارات باب في كسب الأطباء ح ٣٩٠١، ٣٨٩٦.
وفي رواية (خذها فلعمري ...) وإسناده حسن.

(٤) صحيح مسلم- كتاب الزكاة- باب أفضل الصدقة (ح١٠٣٢) عن أبي هريرة.

(٥) الموطأ -كتاب الحدود- باب جامع القطع (ح٣٠) من أحاديث الباب.

(٦) انظر شرح النووي على صحيح مسلم: كتاب الأيمان، تفسير الألوسي تفسير آية: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [آية ١ النساء].

وقد صح أنه ﷺ قال لعمر لما استأذنه في العمرة: « لا تنسنا يا أخي من دعائك » وصح أيضاً أنه أمر عمر بن الخطاب أن يطلب من أويس القرني أن يدعو له- لعمر- عندما يلقاه.

والكثرة الكاثرة من جمهور المسلمين أن هذا النوع- التوسل بدعاء النبي، أو الصالحين- يشمل طلب الدعاء من النبي أو الصالحين في حياتهم وبعد وفاتهم، فالأرواح باقية بعد الوفاة وهي ترى وتسمع وتدرك- خاصة من يزور قبورهم- وتسأل عن ذويهم في دار الدنيا، وهم يدعون الله بما شاءوا لأنفسهم أو لمن يحبون، والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة ومن أراد التوسع فعليه بكتب السنة وكتاب الروح لابن القيم.

وقد فهم المسلمون من الآية الكريمة- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1] - العموم وأنها تشمل حياة الرسول ﷺ الدنيوية والبرزخية، فكانوا يذهبون إلى قبر رسول الله ﷺ يسألونه أن يستغفر لهم.

كيف لا وقد أخبرهم ﷺ أن أعمالهم تعرض عليه في قبره فما كان من خير حمد الله وما كان غير ذلك استغفر لهم وسيأتي الحديث.

---

(١) الآية ٦٤ من سورة النساء.

٧- ومنها التوسل بجاهه أو حرمته ﷺ أو بجاه أو حرمة الأولياء.

كأن يقول: أتوسل إليك بجاه نبيك ﷺ أو بحرمته، وكأن المعنى اجعل قدره العظيم ومنزلته العالية عندك سببا في قضاء حاجتي، وهذا القدر وهذه المنزلة ليسا محل شك عند أي مسلم فهو خير خلق الله ﷻ .

والمدعو والمسئول هنا هو الله تعالى وحده والنبي ليس مدعوا ولا مسئولا، وإنما هو مسئول به ولا يتوقف ذلك على شعور النبي ﷺ بطلبه بل إن صيغ التوسل بذاته ﷺ يمكن حملها على التوسل بجاهه أو حرمته بأن يراد منها ذلك- من المتوسل- فتكون على تقدير مضاف هو لفظ (جاه) أو (حرمة).

روى البخاري في صحيحه «... حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه قال: سمعت ابن عمر يتمثل بشعر أبي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل»[1]

وهو نص صريح في توسل ابن عمر رضي الله عنهما: -« وعن عائشة أنها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر ﷺ ينصت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ﷺ : ذاك رسول الله ﷺ » يقول الحافظ الهيثمي في (مجمع

---

(١) فتح الباري (٢/٤٩٤).

الزوائد) « رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات » أ.هـ[1] وهذا أيضاً نص صريح في توسل السيدة عائشة رضي الله عنها، وإقرار من أبي بكر لها على ذلك.

وكلمة (وجه) تحتمل أن يكون التوسل بجاهه ورفعة قدره، كما تحتمل أن يكون التوسل بذاته ﷺ.

٨- ومنها التوسل بحقه ﷺ أو بحق أوليائه.

كأن يقول: اللهم إني أتوسل إليك بحق النبي ﷺ.

وذلك راجع إلى معنى الجاه والحرمة، لا أنه واجب عليه تعالى.

وقد روى ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بَطَراً ولا رياءً ولا سمعة، وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك. فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك »[2]. حديث حسن (حسّنه جمع من الحفاظ).

قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وحق السائلين الإجابة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ كما قال في آية أخرى

---

(١) مجمع الزوائد ٢٧٢/٨.

(٢) سنن ابن ماجة أبواب بناء المساجد- باب الدعاء عند دخول المسجد. رواه ابن خزيمة في صحيحه ونصّ على أنه حديث حسن:

الحافظ الدمياطي (المتجر الرابح ص ٤٧١-٤٧٢)، الحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ الحافظ المنذري (الترغيب والترهيب ٢٧٣/٣)، الحافظ العراقي (تخريج أحاديث الإحياء ٢٩١/١)، أمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر العسقلاني (أمالي الأذكار ٢٧٢/١).

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأعطاهم سبحانه هذا الحق تفضلا منه وكرما، ولم يزل السلف ومن بعدهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم للصلاة من غير نكير.

وروى الطبراني في معجميه الكبير والأوسط[1] عن أنس بن مالك ﷺ حديث وفاة فاطمة بنت أسد رضي الله عنها وفيه قول رسول الله ﷺ: «الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين» وهو حديث حسن.

٩- ومنها التوسل بذاته ﷺ وبذوات الأنبياء والصالحين.

وذلك على معنى الاستشفاع بذواتهم إلى الله لبلوغ المأرب كأن يقول: اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ أن تقضي حاجتي.

وقد روى النسائي والترمذي وغيرهما عن عثمان بن حنيف ﷺ حديث الرجل الضرير الذي أمره النبي ﷺ أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويدعو بقوله «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي اللهم فشفعه في» فعاد بصره[2]، حديث صحيح.

---

(١) المعجم الكبير ٣٥٢/٢٤ (ح٨٧١)، المعجم الأوسط ١٥٢/١.

(٢) سنن الترمذي كتاب الدعوات- باب من أدعية الإجابة (ح٣٥٧٣) وذكر الشيخ ابن تيمية أن الحديث صحيح. انظر (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٠١).

فهذا توسل بذاته ﷺ ونداء له ﷺ يبطل محاولة من يحاول تأويل ظاهر الحديث ليجعله توسلا بدعائه ﷺ لا بذاته، وقد سبق ذكر أن كلمة (وجه) في عبارة (وأبيض يستسقى الغمام بوجهه) تفسر بـ (ذاته) كما في الآية الكريمة ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ذاته.

وسنجعل لحديث الضرير بحثا خاصا يوضح صحته ويبطل محاولات البعض صرفه عن ظاهره الواضح.

١٠- ومنها طلب الشفاعة من النبي ﷺ .

كأن يقول المتوسل: اشفع لي يا رسول الله، أو: أسألك الشفاعة لي، أو: اللهم شفع فينا نبيك.

والشفاعة من الشفع- الذي هو ضد الوتر- فهو يطلب من النبي، أو الصالح أن ينضم إليه في الدعاء ويسأل الله له المغفرة، أو قضاء حاجته.

فهذا يرجع إلى النوع السابق ذكره وهو التوسل بطلب الدعاء، وهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ مراد به نفي الشفاعة الشركية، وهي ما كان يعتقده المشركون أن شفاعة آلهتهم محتمة القبول عليه تعالى بحكم شراكتهم له في الألوهية فهي لا ترد عنده وإن لم يرض بها كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

أما الشفاعة بإذنه أي برضاه فقد ملكها الله إلى عباده الصالحين، فليس المراد أن إباحتها للشافع لا تكون إلا بعد الاستئذان، وإنما يتوقف نفعها على

رضاه تعالى أن يقبلها وتفضله بذلك، إذ لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾.

فلا يقدم على الشفاعة إلا من أكرمه الله بها فجعله من الشفعاء، وأنه إذا شفع فليس من الواجب عليه تعالى أن يقبل شفاعته لا محالة؛ بل قبولها موكول إلى إذنه تعالى أي رضاه؛ لأن نفوذ المشيئة لله وحده دون سواه، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وشهادة الحق هي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهي للنبي ﷺ والمؤمنين الأكمل فالأكمل.

١١- ومن أنواع التوسل: التوسل بطلب الفعل من الوسيلة وإسناده إليها.

وهي بمعنى طلب التوجه من الوسيلة إلى الله تعالى في قضاء الحاجة إذ ليس لأحد مع الله فعل، أو ترك، وإنما المتوسل به سبب للشفاعة والدعاء، والقرينة أن المتوسل من الموحدين، ولا ينبغي إساءة الظن بهم[1].

---

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء- باب العزم في الدعاء ولا يقل إن شئت حديث رقم (٢٦٧٨): عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء ولا يقل: اللهم إن شئت فأعطني فإن الله لا مستكره له » وفي رواية « إن الله صانع ما شاء لا مكره له » يقول النووي: معنى الحديث استحباب الجزم في الطلب وكراهة التعليق على المشيئة، قال العلماء: سبب كراهته أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه عليه الإكراه والله تعالى منزه عن ذلك وهو معنى قوله ﷺ في آخر الحديث «فإنه لا مستكره له» أ.هـ كلام النووي.

قلت: وعليه يحمل كلام المؤمنين في التوسل بإسناد الأفعال إسناداً مجازيا إلى الوسيلة - مجاز علاقته السببية وهو كثير شائع في القرآن والسنة- فنحسن الظن بهم بقرينة توحيدهم، وهم غير

وهذا لا يعد عبادة للوسيلة وإنما استشفاع واستعانة وطلب أراد به طلب السعي والتسبب، وراجع إلى التوسل بسعيهم المقدور لهم كسبا لا خلقا ولا إيجادا فليس ذلك كفرا صراحاً ولا شركاً جلياً، وإنما هو راجع إلى جعل السعي الميسور للعبد وسيلة وسببا عاديا لخلق الله الفعل المسند إلى العبد ظاهراً.

وينبغي أن يتفطن إلى أن ما يطلق على الخالق والمخلوق من الصفات كالرأفة والرحمة والوجود والعلم والهداية والشفاعة في قوله تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ (١) مع قوله ﷺ: «أعطيت الشفاعة» (٢) لا يشتبه على الواعي، إذ مدلولات الألفاظ حين تطلق على الخالق تختلف عن مدلولاتها إذا أطلقت على الخلق من حيث الكمال والكيفية والخلق والتسبب اختلافا كليا. فتطلق على الإله بما يناسب مقام الحق.

وإذا وصف المخلوق بشيء منها فيكون متصفا بها بما يناسب البشرية: محدودة ومخلوقة ومكتسبة بإذن الله وفضله وإرادته لا بقوة المخلوق، أو تدبيره، أو أمره، وإنما مَنّ الله بها على المخلوق قوة وضعفا على ما شاء الله وأراد، فلا يرفع المخلوق وصفه بها إلى مقام الإلوهية ولا تكون نسبتها إليه شركا.

ملزمين عقب كل عبارة ببيان أن نسبة الأفعال إلى الله خلقا وإيجاداً واستقلالاً ونسبتها للخلق بالتسبب، خاصة إذا كان المتحدث مؤمنا موحِّداً لم يسجد لصنم قط ولم يدُرْ بخلده- فضلا عن أن يناقش- وجود إله آخر شريك لله سبحانه وتعالى، فيكون هذا البيان في حقه من لغو القول وركاكته إذ أنّ نفي المعنى الخطأ يوهم إمكان حدوثه أو إمكان قصده.

(١) الآية ٤٤ من سورة الزمر.

(٢) جزء من حديث أوله «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي...» الحديث متفق عليه صحيح البخاري - كتاب التيمم ح(٣٣٥) وذكره أيضاً في كتاب الصلاة في الخمس، صحيح مسلم- كتاب المساجد ومواضع الصلاة ح(٥٢١).

ومن هذا الباب ما جاء في الأحاديث من الحث على تفريج كربة المؤمن والتيسير على المعسر وإعانة المستعين[1]، حيث إن الكل موقن بأن المفرّج والمعين والميسر هو الله تعالى، وأن العبد ليس إلا سبب في ذلك. ومن هذا الباب ما وصف حسان به رسول الله ﷺ بقوله :

يا ركن معتمد وعصمة لائذ ومـلاذ منتجع وجار مجاور

فوصفه لرسول الله ﷺ بأنه ركن المعتمدين وعصمة اللائذين وملاذ القاصدين وجار المستجيرين لم يكن يقصد به أنه ﷺ يشارك الباري في تلك الصفات؛ بل هي لله بالأصالة وعلى الحقيقة وأن رسول الله ﷺ هو سبب فيها من باب الإسناد المجازي.

وينبغي أن يتفطن أيضاً إلى ألفاظ قد تصدر من الناس كقولهم: ليس لي ملاذ سوى النبي ولا رجاء إلا هو، وقولهم: إليه يفزع في المصائب، وقولهم: إن توقفت فمن أسأل، فلا ينبغي أن يسارع إلى تكفير الناس بسببها.

إذ أولاً: ليس المقصود بهذه الألفاظ المقارنة بين رسول الله ﷺ وبين ربه؛ بل هي مقارنة بين الخلق، بمعنى أنه ليس في الخلق من هو أولى من رسول الله ﷺ بأن يلاذ به ويلجأ إليه ويفزع إليه عند الشدائد، ليقوم بالتوسل عند ربه في كشفها، مثل ما كان عليه الحال في يوم الهول العظيم حيث لم يجد الأنبياء

---

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ قال: « من نَفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نَفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ... » الحديث كتاب (الذكر والدعاء) باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (ح٢٦٩٩).

والخلائق ملجأ إلا في رسول الله ﷺ يشفع لهم في كشف كربهم ففعل وقال: أنا لها وشفع.

وثانياً: ليس في المسلمين إطلاقا من يعتقد لأحد مع الله فعل، أو ترك، أو رزق، أو نصر، أو إحياء، أو أماتة فحسن الظن بهم- وهو ما أمرنا به- حمل مثل تلك الألفاظ على المجاز العقلي من إسناد الشيء إلى سببه؛ لأن اعتقاد المسلم أن الملجأ والملاذ والمفزع والمدد كله لله خلقاً وإيجادا أصالة، وما نسبتها إلى المخلوق ممن أكرمه الله بحصولها على يده إلا أنه هو المتسبب فيها بدعائه لربه وشفاعته عنده.

فليس معنى طلب شيء من الوسيلة عند المسلم إلا الطلب منه بأن يسأل الله تعالى ويشفع عنده بقضاء الحاجة.

وحمل هذه الألفاظ على حقائقها دون اعتبار لقرينة توحيده هو ظلم كبير وخطأ فاحش.

وهكذا الألفاظ التي جاءت في قصائد المادحين ليس مقصود أصحابها ولا اعتقادهم مشاركة رسول الله ﷺ لربه في صفاته؛ بل أطلقوها عليه ﷺ بما يناسب البشرية من كونها محدودة ومكتسبة ومخلوقة لله عطاء وكرامة، وأنه ﷺ مجرد سبب فيها من باب الإسناد المجازي، فلا يرفعه وصفه بها إلى مقام الألوهية، ولا تكون نسبتها إلى المخلوق شركا بالله.

والتوسل بأي نوع من الأنواع السابقة كله في حقيقته دعاء لله تعالى وحده ظاهراً وباطناً، والوسيلة فيها سبب يتوجه إلى الله بها.

وقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] شامل لدعاء الشخص نفسه ولدعاء الوسيلة.

وكل التوسلات ليس فيها دعاء غير الله بما اختص به وحتى حين يطلب المتوسل قضاء الحاجة من الوسيلة مباشرة لا يريد الموحد من الوسيلة إلا أن يسعى في قضاء حاجته بالطرق المقدورة له عند من بيده الأمر، فهو في حقيقته استشفاع لطلب السعي والتسبب العادي عند الله في إجابة الدعاء وقضاء الحاجة[2].

---

(١) الآية ٦٠ من سورة غافر.

(٢) مثال ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي (رضي الله عنه) قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: سل، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود» كتاب الصلاة- باب: فضل السجود والحث عليه ويلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يقل له: أشركت حين سأله مرافقته في الجنة ولم يصحح له عبارته بل قبلها منه ﷺ، ونهي العلماء إنما هو في حق من يخشى عليه الالتباس والخطأ.

ويشبه ذلك ما رواه الحاكم في المستدرك من طريقين ٢/٤٠٤-٤٠٥ ح٣٥٢٣، ٢/٥٧١-٥٧٢ ح٤٠٨٨ في قصة عجوز بني إسرائيل التي سألها سيدنا موسى أن تدله على قبر نبي الله يوسف: «... قالت: لا والله حتى تعطيني حكمتي، قال: وما حكمتك؟ قالت: حكمتي أن أكون معك في الجنة. فكأنه كره ذلك، قال: فقيل له: أعطها حكمها فأعطاها حكمها...» الحديث.

قال في الموضع الأول: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبي. وقال في الموضع الثاني: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد أخرجه أبو يعلى في مسنده ١٣/٢٣٦-٢٣٧ ح٧٢٥٤ وفيه: «... قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه أن أعطها حكمها فانطلقت بهم ...» قال الحافظ الهيثمي: «ورجال أبي يعلى رجال الصحيح وهذا الذي حملني على سياقها». وأخرجه ابن حبان في صحيحه من طريق أبي يعلى.

ورواه ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم.

ومن رأى من علماء السواد الأعظم من المسلمين البعد عن إسناد الطلب إلى العبد فلم يدّع أن ذلك شرك، أو كفر، وإنما رأى الابتعاد عما يوهم أن للنبي، أو للولي شيئاً من صفات الألوهية، كأن يكون الدعاء مثلا لطلب مثل غفران الذنوب، أو إدخال الجنة، أو النجاة من النار وإنزال المطر وإنبات الشجر، وأمثال ذلك مما هو من خصائص الربوبية.

وظاهر أن النظر إلى الأسباب والأخذ بها، غير الاعتماد عليها، فإن الاعتماد على السبب هو الركون إليه مع الغفلة عن الفاعل المختار.

ورواه الطبراني عن أبي موسى (مجمع الزوائد ١٠/١٧٠) ورواه أيضاً عن علي بن أبي طالب في (المعجم الأوسط) : « ... قالت: لا والله حتى تعطيني ما أسألك. قال: ذلك لك. قالت: فإني أسألك أن أكون معك في الدرجة التي تكون فيها في الجنة. قال: سلي الجنة. قالت: لا والله إلا أن أكون معك! فجعل موسى يردّها، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه أن أعطها ذلك فإنه لا ينقصك شيئا، فأعطاها ودلته على القبر ... » الحديث قال الهيثمي: « رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفهم » . (مجمع ١٠/١٧١).

ويستفاد من هذا الحديث وما قبله:

١- أن سيدنا محمد وسيدنا موسى عليهما السلام وبقية الأنبياء وكذا الأولياء والصالحون كل حسب درجته ومنزلته جعله الله سبحانه سببا ومفتاحا لأنواع من الخير في الدنيا والآخرة والمؤمن الموحد يسألهم قضاء حاجته سواء دنيوية أو أخروية من منطلق أنهم أسباب فقط ليس إلا والأمر كله بيد الله وحده استقلالا وخلقا وإيجاداً ويتضح ذلك تماما من قصة عجوز بني إسرائيل.

٢- جعل الله الأنبياء والصالحين أسبابا ووسائل لقضاء هذه الحاجات برضاه سبحانه كالملائكة تماماً ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به سبحانه وذلك تكريم من الله لهم وتعظيم لشأنهم كشفاعته ﷺ يوم القيامة قال عليه السلام « إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله » رواه الترمذي بإسناد صحيح.

٣- أن تعظيم شأن الأنبياء والصالحين ومحبتهم والتعلق بهم هو تنفيذ للأمر الإلهي ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ والأنبياء والأولياء والصالحون من أعظم شعائر الله.

فممّا ورد من قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] وقوله ﷺ: « وإذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله »[2] وقوله: « إنه لا يستغاث بي وإنّما يستغاث بالله »[3] وأمثال ذلك فإنه إرشاد إلى عدم الغفلة عن الفاعل المختار، وليس مراداً أن لا يطلبها العبد إلا من الله؛ لأن طلبها من العباد لتحصيل أفعال الله هو من اتخاذ الأسباب المشروعة وترتيب الأسباب على مسبّباتها، فدعاء الله مجرداً من الوسائل ودعاؤه مقرونا بها كلاهما مشروع وهي من الله في كل الأحوال خلق الفعل في العبد، ومن العباد التسبب فيها.

فالمثبت في الاستغاثة والإعانة والاستعانة لله تعالى هو الخلق والإيجاد.

والمثبت للعبد هو التسبب في ذلك بالدعاء والشفاعة، أو غيرهما لدى من بيده الأمر كله.

والصحابة حين كانوا يستغيثون برسول الله ﷺ، أو يطلبون منه الشفاعة، أو يشكون حالهم إليه من فقر ومرض وعاهة وبلاء وجدب، كانوا يعلمون أنه ﷺ لا يفعل ذلك بقوته، وإنما هو عبد لله له مقامه ووجاهته وكرامته عنده، وأنه مجرد سبب من أسباب الإجابة لقضاء حوائجهم، فلا يعنون من الطلب إلا وساطته عند ربه بالتوجه إليه ليدعو ويشفع، ومع ذلك كان

---

(١) الآية ٥ من فاتحة الكتاب.

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عباس. كتاب صفة القيامة باب رقم ٦٠ ح٢٥١٨ قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وهو أيضاً في مسند الإمام أحمد.

(٣) قال الحافظ الهيثمي: « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث. وقد رواه احمد بغير هذا السياق وهو في الأدب في باب القيام » أ.هـ مجمع الزوائد ١٠/١٥٩. وذكر الهيثمي في مواضع أخرى من كتابه أن ابن لهيعة ضعيف وهو رأي جمهور العلماء بالفعل وعليه فالحديث إسناده ضعيف، والتعليل المذكور أعلى الصفحة هو بافتراض صحة الحديث.

موقف رسول الله مع السائلين تارة الاستجابة لطلبهم، وتارة يخيرهم بين الصبر وكشف البلاء، كما خير الأعمى والمرأة التي تصرع وقتادة الذي أصيبت عيناه، وتارة يقول لهم: « إنما يستغاث بالله »[1] ويقول للسائل تارة « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله »[2] وتارة يقول: « السيد هو الله»[3]، ومرة يقول: « أنا سيد ولد آدم »[4] .

وواضح من اختلاف أجوبته للسائلين أنه كان يراعى حالة السائل حين يسأله، فيجيبه بما يقضى به رسوخ الاعتقاد في قلبه وعدم الغفلة عن الفاعل المختار، وسد باب الاتكال على سواه، وليس مرادًا أن لا يطلب ذلك إلا من الله.

ومما يدل على أنه ليس القصد أن لا يطلب العبد ذلك إلا من الله منعه ﷺ لمن قالوا: قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال لهم: « إنما يستغاث بالله ولا يستغاث بي » في الوقت الذي لا يجهل أحد أن الاستغاثة بالحي في مثل ما طلبوه غير ممنوعة وهو ردع المنافق الذي تأذوا منه.

ومثل هذا من قال لرسول الله ﷺ : ما شاء الله وشئت، فأجابه ﷺ : «أجعلتني لله ندًّا؛ بل ما شاء الله » .

فواضح أنه كان الجواب مراعاة لحال السائل في سد باب أن يسبق إلى الظن تساوى مشيئة أحد مع مشيئة الباري، وإلا فإنه ﷺ يعلم الفرق بين المشيئتين ولا يشتبه الأمر عليه وهو الذي نزل عليه كثير من الآيات فيها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه أبو داود في سننه بإسناد صحيح: كتاب الأدب- باب كراهية التمادح حديث رقم (٤٧٧٣)، وكذا الإمام أحمد في المسند ٤/٢٤-٢٥.

(٤) رواه الترمذي في سننه في المناقب باب (٣) ح٣٦٢٠ وقال: حديث حسن.

العطف بالواو الذي استنكره على السائل كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [1] إذ لا يشتبه معنى أغنى حين ينسب إلى الله وحين ينسب إلى الرسول ﷺ .

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [2] إذ لا يشتبه ولاية الله بولاية جبريل عليه السلام.

وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [3] إذ لا تشتبه ولاية الله بولاية رسوله ﷺ أو بولاية المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [4] إذ لا يشتبه الفضل حين ينسب إلى الله وحين ينسب إلى رسول الله ﷺ .

وكذا لما خطب رسول الله ﷺ أم سلمة كان من جملة ما قاله: « ... وأما العيال فإلى الله ورسوله ... »، وفي رواية « ... إلى الله وإلى رسوله... »، وفي رواية ثالثة: « ... وهم على الله وعلى رسوله » [5]، إذ لا تشتبه عناية الله ورعايته لأطفالها بعناية رسوله ﷺ ورعايته.

وأيضاً لما سأل رسول الله ﷺ أبا بكر: « ما أبقيت لأهلك؟ » قال أبو

---

(١) الآية ٧٤، من سورة التوبة.

(٢) الآية ٤، من سورة التحريم.

(٣) الآية ٥٥، من سورة المائدة.

(٤) الآية ٥٩، من سورة التوبة.

(٥) رواه أحمد في مسنده والبيهقي في الدلائل من طرق. حسن لغيره.

بكر: « أبقيت لهم الله ورسوله»[1] فأقره رسول الله ﷺ على قوله.

وقول الصحابة في كل ما لا يعلمونه: « الله ورسوله أعلم »، إذ لا يشتبه علم الله بعلم الرسول ﷺ .

والغاية من هذا البيان توضيح أنه لا يصح الاستدلال بنهي الرسول ﷺ عن استعمال بعض الألفاظ على حرمة استعمالها، إذ الغاية من النهي عنها أحيانا كان مراعاة حال السائل بإرشاده إلى عدم الغفلة عن الفاعل المختار، وإلى عدم اتكاله على الأسباب اتكالا كلياً.

وأنه لا يغيب عن فهم المؤمن أن الصحابة حين كانوا يستغيثون برسول الله ﷺ، أو يطلبون منه أمرا، أو يشكون إليه حالهم أن رسول الله ﷺ حين كان يجيبهم على ما طلبوه من حاجات، لم يقل لهم: أن الأمر لا يحتاج إلى وسيلة، واشكوا حالكم إلى الله تعالى؛ لأنه قريب مجيب لا حجاب بينه وبين خلقه فتوجهوا إليه بالطلب رأسا، لأنّه من المعلوم أنه وإن كان المدعو أقرب فإن العبرة في قبول الدعاء إنما هو بأقربية الداعي كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2]، بل قام ﷺ بتعليمهم أساليب التوسل بنفسه كما سبق.

---

(١) سنن الترمذي كتاب المناقب باب (١٦) في مناقب أبي بكر وعمر قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) الآية ٢٧، من سورة المائدة.

الفصل الثاني
لا فرق بين أن يكون الوسيلة حياً أو ميتاً

سبقت الإشارة إلى بعض صور وأساليب التوسل بالنبي ﷺ، أو الصالحين، ويمكن أن نقسمها إلى قسمين متميزين من حيث دور الوسيلة- النبي ﷺ أو الصالح- في قضاء حاجة المتوسل:

القسم الأول:

وهو ما ليس للوسيلة دخل أصلاً في موضوع حاجة المتوسل، أو طلبه من الله، بدعاء، أو شفاعة، أو غير ذلك، رغم ورود اسم الوسيلة، أو ما يتعلق بها في دعاء المتوسل.

مثل التوسل بذاته ﷺ، أو بجاهه، أو بحرمته، أو بحقه، أو بقدره الرفيع عنده تعالى، وكذا بالصالحين.

ويستوي في هذا القسم التوسل بالنبي ﷺ، أو الصالح قبل وجوده في الدنيا -أي قبل خلقه-، أو أثناء حياته الدنيوية، أو بعد انتقاله في البرزخ، أو يوم القيامة في الآخرة، بيان ذلك أن سؤال الله تعالى بقدر، أو جاه، أو حق النبي، أو الصالح عنده تعالى ليس إلا سؤال بفعل من أفعال الله تعالى، حيث أنه سبحانه الذي أعطاه هذا القدر الرفيع والجاه العظيم بفضله وإحسانه محبته له، وهو- النبي أو الصالح- كان في علمه تعالى (قبل خلقه) وبعد ظهوره للوجود وسيظل أبداً عبداً يستمطر فضل الله وإحسانه في الدنيا والآخرة.

فكأن سؤال الله تعالى بقدر، أو جاه، أو حق عبده فلان عنده لـــيس إلا سؤال له سبحانه بمحبته له وبفضله وإحسانه – الذي ظهر لنا في قدر وجاه فلان– أن يعمنا ذلك الفضل والإحسان فيقضي لنا حاجتنا ويعلـــي قـــدرنا عنده لأننا من أحبابه، ولأن ذكرنا وإقرارنا بقدره الرفيع وجاهه يتضمن ثناءً على أفعاله سبحانه وتعالى– محبته لفلان وفضله عليه– .

وهنا ليس للنبي، أو الصالح أي فعل، أو دعاء، أو علم بحاجتنا موضوع التوسل، و لم يطلب المتوسل منهم شيئاً في ذلك، فليس هناك فرق بين حياتهم ووفاتهم، علموا بالداعي– المتوسل– أم لم يعلموا، بل ليس هناك فرق قبـــل خلقهم ومجيئهم إلى الدنيا وبعد ظهورهم إلى الوجود، فلا توجه ولا دعاء ولا سؤال له سبحانه من غير المتوسل صاحب الحاجة.

وإليك مثالين على ذلك:

المثال الأول:

توسل سيدنا آدم أبو البشر ﷺ بحق نبينا محمد ﷺ

روى الحاكم في مستدركه (٢/٦١٥):

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

« لما اقترف آدمُ الخطيئةَ قال: يا رب اسألك بحق محمد لما غفـــرت لي، فقال الله: يا آدمُ وكيفَ عرفتَ محمداً و لم أخلقه، قال: يا رب لأنـــك لمـــا خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمـــك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي ادعني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك » .

ورواه الطبراني وزاد فيه « وهو آخر الأنبياء من ذريتك » وسند هـذا الحديث فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف – من جهة حفظه).

وله شاهد يرتقي به إلى درجة الحسن، فروى ابن بشران بإسناد قوى- كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني-: عن ميسرة الفجر قال: قلت يا رسول الله متى كنت نبياً؟ قال: « لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام وآدم بين الروح والجسد، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله أنه سيد ولدك، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه » .

وهذا الشاهد ذكره أيضاً ابن الجوزي في (الوفا بفضائل المصطفى) وبذلك يكون حديث توسل آدم حسنا لغيره فيحتج به بلا نزاع، وله شواهد أخرى ضعيفة، وممن أكد هذا الخبر وأخذ به الإمام مالك بن أنس ﷺ فقال في كلامه للمنصور: « ... وهو – يشير إلى النبي- وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى يوم القيامة... » .

المثال الثاني:

[توسل أهل الكتاب بالنبي ﷺ قبل وجوده]

وكان أهل الكتاب لهم علم من ذلك فكانوا يتوسلون به قبل وجوده فيستجاب لهم كما قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانت أهل خيبر تقاتل غطفان، كلما التقوا هزمت غطفان يهود، فعاذت يهود بهذا الدعاء: اللهم إنا نسألك بحق

النبي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، فكانوا إذا التقوا ودعوا بهذا الدعاء فتهزم يهود غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا به فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي يدعون بك يا محمد إلى قوله: ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وهذا الأثر رواه الحاكم في (المستدرك)، والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفي هذا السند، عبد الملك بن هارون (ضعيف) لكن للأثر طرق أخرى، منها ما رواه أبو نعيم في (الدلائل) عن عكرمة عن ابن عباس وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس من طريق ابن إسحاق، وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً، ووجه الدلالة في الخبر أن الله سبحانه أقرهم على توسلهم بالنبي ﷺ قبل وجوده، وإنما ذمهم على جحودهم له بعد ظهوره ﷺ .

ويتضح من هذين المثالين أن صور وأساليب التوسل في هذا القسم ليست مرتبطة بوجود الوسيلة، أو علمها بمن يتوسل بها، ولا يشترط دعاء الوسيلة، أو شفاعتها، أو غير ذلك، بل يشترط فقط أن يكون للمتوسل به- النبي، أو الصالح- قدر وجاه عند الله سبحانه يصلح أن يكون سبباً لأن يقضى الله حاجة هذا المتوسل، روى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

أوحى الله إلى عيسى : « يا عيسى آمن بمحمد وَمُرْ من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار. ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن»[1] قال الحاكم: هذا صحيح الإسناد و لم يخرجاه يعني البخاري ومسلم.

---

(١) المسندرك (٢/٦١٥).

وإذا كان عز وجل يستجيب لأعدائه بالتوسل إليه مع علمه عز وجل بأنهم يكفرون به ويؤذونه ولا يتبعون النور الذي أنزل معه قبل وجوده وبروزه إلى الوجود، فما الظن بمن يؤمنون به ويعزرونه ويوقرونه ويكرمونه ويتبعون النور الذي أنزل معه وهو القرآن العظيم مع بروزه إلى الوجود وإرساله رحمة للعالمين، وإذا كان رحمة للعالمين فكيف لا يتوسل به ويتشفع به.

فمن أنكر التوسل به والتشفع به بعد موته؛ لأن حرمته زالت بموته فقد أخطأ وخالف الصواب.

القسم الثاني:

وهو ما يكون للوسيلة دور في الدعاء والتشفع للمتوسل والتوجه إلى الله في قضاء حاجته ويكون سببا في قضائها.

ولا فرق في هذا بين أن يكون الوسيلة حياً، أو ميتاً إذ المعنى الذي أجيز به التوسل بالحي أنه سامع قادر على الدعاء والشفاعة، وهذا المعنى موجود في عامة موتى المسلمين فضلا عن خاصتهم فضلا عن سيد المرسلين.

فقد ثبت لأهل القبور الحياة ولوازمها، فالأرواح بعد مفارقة أبدانها لا تزال حية عالمة سامعة مبصرة متكلمة[1]، ولذا خوطبت في الزيارة كما

---

(١) سواء كانت مؤمنة أو كافرة فقد ورد في السنة:

١- أن الميت بعد دفنه يسمع نعال مشيعيه.

٢- لما وقف رسول الله ﷺ ينادي قتلى المشركين بعد دفنهم في القليب في بدر، وسأله عمر ﷺ: (يا رسول الله أتنادى قوما قد جيفوا) وذلك لمرور ثلاثة أيام بعد قتلهم قال ﷺ : « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ... » الحديث رواه مسلم.

٣- يقول عمرو بن العاص لأهله لما حضرته الوفاة: « فإذا دفنتموني فشنوا على التراب شنّا

يخاطب الأحياء فتقول: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون »[1] وهم يسمعون كلامهم ويردون سلامهم كما ورد في الحديث.

وورد أن الموتى يقرؤون القرآن في قبورهم، فقد روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن صحابياً ضرب خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، وأن رسول الله قال في ذلك "هي المنجية"[2].

وأهل القبور بتلك الحياة يحسون بالنعيم والعذاب، وبتلك الحياة يسمعون ويبصرون ويتكلمون وورد أنهم يتباهون بأكفانهم ويتزاورون، كما رواه البيهقي.

ويتأذون بما يبلغهم عن أعمال الأحياء، فقد روى الديلمي أن الميت يؤذيه في قبره ما يؤذيه في بيته.

ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وانظر ماذا أراجع به رسل ربي .. » صحيح مسلم- كتاب الإيمان- باب كون الإسلام يهدم ما قبله حديث رقم..؟

٤- روى ابن عبد البر في التمهيد والاستذكار بسند صحيح عن ابن عباس يرفعه: « ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » .

وروى أبو الشيخ والديلمي من حديث أبي هريرة « ما من رجل يزور قبر أخيه فيسلم عليه ويقعد عنده إلا رد عليه السلام وأنس به حتى يقوم من عنده » وروى نحوه أيضاً ابن أبي الدنيا.

(١) صحيح مسلم -كتاب الجنائز- ح ٩٧٤، ح٩٧٥.

(٢) سنن الترمذي عن ابن عباس في ثواب القرآن- باب في فضل سورة الملك ح٢٨٩ وفي إسنادها ضعف .

ويدعون لفاعل الخير بالثبات، ولفاعل الشر بالهداية، ويعلم الميت من حمله ومن غسله ومن دلاه في قبره، كما في حديث أحمد.

ويسمع قرع نعال المشيعين إذا انصرفوا، كما في حديث البخاري.

ويسر بزيارة قبره والجلوس عنده، ويرد سلام المسلم عليه، كما رواه البيهقي.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عمن سمع أنساً يقول: قال رسول الله ﷺ : « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » .

وله طريق أخر موقوف صحيح[1].

وروى ابن المبارك في الزهد والطبراني في الكبير:

« إذا قبضت نفس العبد تلقاه أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشر في الدنيا، فيقبلون عليه ليسألوه فيقول بعضهم لبعض: أَنْظِرُوا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب. فيقبلون عليه فيسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ هل تزوجت؟ فإذا سألوا عن الرجل قد مات قبله قال لهم: إنه قد هلك، فيقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية. قال: فيعرض عليهم أعمالهم فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا هذه نعمتك على عبدك فأتمها، وإن رأوا سوءاً قالوا: اللهم راجع بعبدك»[2].

---

(١) ذكره الألباني في الضعيفة برقم (٨٦٣) ثم تراجع وذكره في الصحيحة ٦/٦٠٥.

(٢) ذكره الألباني في الضعيفة برقم (١٦٤) ثم تراجع وذكره في الصحيحة ٦/٦٠٥ والطريق الأولى موقوفة صحيحة.

وذكر ابن كثير عند تفسير الآية (٦٧) من سورة الزخرف ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ حديثا أخرجه عبد الرزاق عن علي ﷺ ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قال:

خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله فقال: اللهم إن فلانا خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أني ملاقيك، اللهم فلا تضله بعدي حتى تريه مثل ما أريتني وترضى عنه كما رضيت عني. فيقال له: أذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيرا وبكيت قليلا...

وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم إن خليلي فلانا كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني وتسخط عليه كما سخطت علي .... » الحديث وإسناده صحيح، رواه الحارث الأعور عن علي ﷺ والحارث ثقة على الأرجح عند كثير من المحدثين.

ففي هذه الأحاديث الثلاثة وهي عن عوام المؤمنين تظهر نقطتان:

الأولى: أن الأموات يهتمون بأمور ذويهم وأقربائهم في دار الدنيا ويتتبعون أخبارهم.

الثانية: أنهم يدعون الله لهم بالهداية وقضاء الحوائج وغير ذلك.

بل روى الإمام الطحاوي في (مشكل الآثار)[1] عن ابن مسعود عن

---

(١) باب (٥٠٦) حديث رقم ٣١٨٥.

النبي ﷺ أنه قال: « أمر بعبد من عباد الله أن يضرب في قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل ويدعو حتى صارت جلدة واحدة فجلد جلدة واحدة... » الحديث، وإسناده حسن واستدل الطحاوي على إيمان الرجل بإجابة الله دعاءه.

هذا عن دعاء عوام المؤمنين في قبورهم:

أما عن الشهداء فلهم شأن آخر أعظم وأكبر من ذلك، وانظر الأحاديث الواردة في تفسير الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[آل عمران: ١٦٩].

فروى ابن كثير عن ابن إسحاق في خبر شهداء بئر معونة: قال « حدثني أنس بن مالك أن الله أنزل فيهم قرآنا: (بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه) ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زماناً وأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾.

وقد قال مسلم في صحيحه: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال: إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل؛ فاطلع عليهم ربهم إطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات؛ فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا

قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى؛ فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » .

وروى ابن مردويه من طريقين، والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال: نظر إليّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: « يا جابر مالي أراك مهتما؟ » قال: قلت يا رسول الله استشهد أبي وترك ديناً وعيالاً قال: فقال: « ألا أخبرك ما كلم الله أحد قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً » قال علي: والكفاح المواجهة « قال: سلني أعطك، قال: أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني القول أنهم إليها لا يرجعون قال أي رب فأبلغ من ورائي فأنزل الله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ﴾ الآية » أ.هـ. كلام الحافظ ابن كثير[1].

وفي هذه الأحاديث أن الله سبحانه أكد عليهم أن يسألوه حتى يجيبهم وأن الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ ... ﴾ نزلت بعد أن طلب عبد الله أبو جابر أن يبلغ الله سبحانه من في الدنيا عنهم، وشهداء بئر معونة طلبوا من الله أن يبلغ قومهم عن حالهم.

كل هذا عن دعائهم وهو مستجاب قال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فهل يقتصر تصرف هذه الأرواح العلوية الطاهرة على الدعاء؟

وروى أبو نعيم في الدلائل (ح٥١٩) والطبراني (مجمع ٣٢٢/٩) والبغوي والحاكم في المستدرك ٢٣٥/٣ وله شواهد عن عطاء الخرساني قصة استشهاد ثابت بن قيس في معركة اليمامة وفيه:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير عند الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

« ... وثبت ثابتٌ وسالمٌ فقاتلا فقتلا، وعلى ثابت يومئذٍ درع له نفيسة، فمر به رجل من المسلمين فانتزعها منه، فرأى رجل من المسلمين ثابت بن قيس في منامه فقال: إني موصيك بوصية، إني لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فانتزع درعي، ومنزله في أقصى العسكر، وعند خبائه فرس يستن في طوله، وقد كفأ على الدرع برمة وجعل فوق البرمة رحلاً، فائت خالد بن الوليد، فمره فليبعث إلى درعي، فليأخذها، فإذا قدمت على خليفة رسول الله ﷺ فقل له: إن علي من الدين كذا وكذا، ولي من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق وفلان ..... فأتى الرجل خالد بن الوليد، فبعث، فوجد الدرع كما ذكر ووصف، فلما قدم على أبي بكر أخبره، فأنفذ وصيته، ولا يعلم أحد أنفذت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس». صحيح بمجموع طرقه وفي بعض طرق هذا الخبر أن ثابتاً قال لهذا الرجل: « إياك أن تقول هذه رؤيا منام » .

وهذه كرامة من الله لعبده ثابت بأن جعل روحه تتصرف بنفسها بعد موته.

يقول ابن القيم في كتاب الروح[1]: « فصل: ومما ينبغي أن يُعْلَم أنَّ ما ذكرنا من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف، والكبر والصغر، فللروح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها، وأنت ترى أحكام الأرواح في الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت بحسب تفارق الأرواح في كيفياتها وقواها، وإبطائها وإسراعها، والمعاونة لها.

فللروح المطلقة من أسر البدن، وعلائقه، وعوائقه من التصرف، والقوة،

---

(١) فصل بعد المسألة الخامسة عشر أعطاه المحقق عنوانه [شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح] ص٢٦٨ فما بعدها. دار طيبة الخضراء- مكة ط. الرابعة ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م، دار ابن كثير- دمشق، تحقيق: يوسف علي بديوي.

والنفاذ، والهمة، وسرعة الصعود إلى الله تعالى، والتعلق بالله، ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه، فإذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها، فكيف إذا تجردت، وفارقته، واجتمعت فيها قواها، وكانت في أصل شأنها روحاً علية زكية كبيرة ذات همة عالية، فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر.

وقد تواترت الرؤيا من أصناف بني آدم على فعل الأرواح بعد موتها؛ ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك، وكم قد رُئيَ النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - في النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم، فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وعُددهم وضعف المؤمنين وقلتهم.

ومن العجب أن أرواح المؤمنين المتحابين المتعارفين تتلاقى وبينها أعظم مسافة وأبعدها، فتتكلم وتتعارف، فيعرف بعضها بعضاً كأنه جليسه وعشيره، فإذا رآه طابق ذلك ما كان عرفته روحه قبل رؤيته.

قال عبد الله بن عمرو: إن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط ورفعه بعضهم إلى النبي ﷺ [1] » أ.هـ.

وثبت بنصوص السنة وإجماع الأمة حياة الأنبياء في قبورهم بأكمل وجوهها، وثبت صلاة الأنبياء في قبورهم كما في حديث مسلم والبيهقي وقد ثبت حضورهم إلى بيت المقدس ليلة الأسراء للصلاة خلفه ﷺ .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/١٧٥) مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد ١٠/٢٧٤): رواه أحمد ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم: ورواه الطبراني.

وورد أن صلاتنا معروضة عليه ﷺ وأن سلامنا يبلغه وأن أعمالنا تبلغه فيدعو للمحسن ويستغفر للمسئ كما في حديث عرض الأعمال عليه الذي أخرجه البزار وصححه العراقي في طرح التثريب والهيثمي في مجمع الزوائد والسيوطي في الخصائص الكبرى والقسطلاني في شرحه على البخاري والقاري في شرحه للشفاء والزرقاني في شرحه للمواهب .

واستنبط سعيد بن المسيب عرض الأعمال عليه من القرآن فروى ابن المبارك عنه أنه قال: ليس من يوم إلا ويعرض فيه على النبي ﷺ عمل أمته غدوة وعشيا ولذلك يشهد عليهم قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

وبالجملة فلحديث عرض الأعمال عليه ﷺ متابعات مرفوعة ومرسلة ومعتضدة بما في بابه ومعناه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [1] لا حجة فيه على عدم سماعهم، إذ المراد كما قال ابن القيم في كتاب الروح: تشبيه الكافر الميت القلب الذي لا يسمع سماعا ينتفع به لعناده بمن في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعاً ينتفعون به لفوات زمن التوبة، و لم يقصد أن أصحاب القبور لا يسمعون سماعا حسياً؛ لأن وجه الشبه سوف لا يتحقق في طرفي التشبيه لو كان المراد نفي السماع الحقيقي عن أهل القبور.

وقوله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله) [2] المراد به انقطاع عمله التكليفي الدنيوي، وإلا فإنه قد ورد مشاهدة النبي ﷺ لبعض الأنبياء يصلون في قبورهم.

---

(١) الآية ٢٢ من سورة فاطر.

(٢) رواه مسلم في كتاب الوصية (ح١٦٣١) باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، أبو داود في كتاب الوصايا باب (١٤)، الترمذي في كتاب الأحكام باب (٣٦)، النسائي في كتاب الوصايا باب (٨)، أحمد في المسند (٢/٣٥٠،٣١٦).

استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما:

واستسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما لا حجة فيه على منع الاستغاثة والتوسل بالميت؛ لأن الاستسقاء بخروج الإمام إلى المصلى والصلاة بهم والخطبة لا يكون عادة إلا بالأحياء بهذه الحياة الدنيوية؛ لأنه يتعذر أن يخرج الميت بالناس، فكان رسول الله ﷺ يخرج بهم في حياته، وكان عمر في خلافته هو صاحب هذه المهمة بصفته إمام المسلمين، ولكنه مع ذلك أقام العباس في الدعاء بصفته قريبا لرسول الله ﷺ، وقال عمر كما في البخاري: « إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » قال العباس: «قد توجه القوم بي إليك لمكانتي من نبيك فاحفظ نبيك في عمه »، فأرخت السماء مثل الجبال.

وهذا في الحقيقة توسل بالنبي ﷺ؛ لأن العباس إنما توسل به الصحابة لكونه عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولمكانته منه.

قال ابن عبد البر روينا من وجوه عن عمر ﷺ أنه خرج يستسقى وخرج معه العباس ﷺ فقال: « اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك صلى الله عليه وآله وسلم ونستشفع به فاحفظ فيه لنبيك صلى الله عليه وآله وسلم كما حفظت الغلامين لصلاح أبيهما ..»[1] الخبر.

وروى الزبير بن بكار في الإنساب أن العباس لما استسقى به عمر قال: « اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة.. » إلى آخر الخبر.

---

(١) انظر (إتحاف الأذكياء بجواز التوسل بالأنبياء والأولياء).

وفي التوسل بالعباس رضي الله عنه إقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في إكرام العباس وإجلاله، صرح عمر نفسه بذلك كما رواه الزبير بن بكار في الأنساب، والبلاذري في فتوح البلدان، ونقل منه الحافظ ابن حجر في (فتح الباري): « ... فخطب الناس عمرُ فقال: إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله ... »[1].

فهذا يدل على أن التوسل بالعباس توسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحقيقة مع ما في ذلك من إكرام العباس وإجلاله، وذلك يرضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويدخل السرور عليه في قبره الشريف، والعباس مع جلالته تلك أحد المضطرين المعرضين للخطر ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢].

وهناك نكت مستفادة من هذا الخبر منها:

١- أراد عمر بفعله ذلك أن يبين جواز التوسل بغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الصلاح ممن ترجى بركته.

ولذا قال الحافظ في الفتح عقب هذه القصة ما نصه: يستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الصلاح والخير وأهل بيت النبوة أهـ.

٢- أراد عمر أن يبين جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل .

لأنه كان في ذلك الجمع من هو أفضل من العباس كعلي وعثمان رضي الله عنهما.

---

(١) فتح الباري- كتاب الاستسقاء - باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا. شرح حديث رقم (١٠١٠).

على أننا لو سلمنا أن عمر ﷺ قد ترك التوسل بالرسول في هذا الخبر فترك الشئ لا يدل على منعه كما تقرر في الأصول، فترك عمر للتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا دلالة فيه أصلا على منع التوسل، وقد ترك النبي صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا من المباحات، فهل دل تركه لها على حرمتها؟ لم يقل بذلك أحد من العلماء، كيف وقد أقرّ عمر من توسل بالرسول ﷺ كما سيأتي في حديث مالك الدار؟!

فالتوسل الذي أشار عمر إلى انقضائه بوفاة الرسول ﷺ هو ما كان ﷺ يباشره في حياته بالخروج بهم إلى المصلى والصلاة والخطبة والدعاء.

أما الاستسقاء بغير خروج؛ بل بالدعاء فقط فالتوسل به ﷺ لم ينقض بوفاته إذ توسل الناس به ﷺ حيا وميتا حين الجدب.

أما حياً ففي السنة كثير من استسقائه ﷺ بالدعاء دون خروج، كاستسقائه ﷺ بالدعاء لقريش لما أصابهم الجدب فسقوا[1]، واستجابته ﷺ في المدينة لمن طلب السقيا فدعا وسقوا[2]، واستجابته كما في البيهقي لطلب الأعرابي الذي قال أتيناك يا رسول الله وما لنا بعيريئط ولا صبي يغط فقام ﷺ إلى المنبر ودعا فما رد يديه حتى القت السماء بأرواقها[3].

استسقاء الصحابة برسول الله ﷺ بعد وفاته:

وأما ميتاً فقد روى ابن أبي شيبة والبيهقي بسند صحيح ورواه – في

---

(١) صحيح البخاري- كتاب الاستسقاء- باب دعاء النبي ﷺ أجعلها سنين كسني يوسف (ح١٠٠٧) وكان هذا في مكة قبل الهجرة.

(٢) صحيح البخاري كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع (ح١٠١٣).

(٣) (دلائل النبوة) للبيهقي ٦/١٤٠ ط دار الكتب العلمية الأولى ١٤٠٨هـ باب استسقاء النبي ﷺ وإجابة الله تعالى إياه.

دلائل النبوة- البيهقي بسنده إلى الأعمش عن أبي صالح عن مالك الدار وكان خازن عمر قال:

« أصاب الناس قحط في زمن عمر ﷺ فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله استسق لأمتك، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: ائت عمر فأقرأه مني السلام وأخبره أنهم مسقون، وقل له: عليك الكيس. قال فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر ﷺ وقال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه».

وها نحن نرى أن عمر نفسه أقر الرجل على توسله برسول الله ﷺ في قبره و لم يقل له: أشركت أو حتى أخطأت !

وهذا الحديث الصحيح دليل ساطع على توسل الصحابة والتابعين به ﷺ بعد وفاته[1].

---

(١) صحح سند هذا الحديث إلى مالك الدار الحافظ ابن حجر في فتح الباري وقد حاول بعض المعاصرين تضعيف الحديث بزعم أن مالك الدار غير معروف العدالة (مجهول الحال) وهو خطأ فاحش مخالف لكل قواعد العلم مردود عليهم لأمور:

الأول: صرح علماء أصول الفقه بأن التعديل كما يكون بالتزكية باللفظ والثناء على الراوي، يكون أيضاً بوجود الأمارات الدالة على وجود هذه التزكية والثناء وإن لم ينقل لفظها وهو (التعديل الضمني) وضربوا لهذا بعض الأمثلة في كتب الأصول وقد استعمل أئمة علم الحديث والجرح والتعديل هذه القاعدة وها هو أمير المؤمنين في الحديث ابن حجر العسقلاني يوثق هُنَيًّا مولى عمر ويعدِّله لأن عمر ﷺ استعمله على الحِمَى.

انظر (فتح الباري) عند شرحه (كتاب الجهاد)- (١٨٠) باب إذا أسلم قوم في دار الحرب ولهم مال وأرضون فهي لهم.

حديث رقم (٣٠٥٩) « ... أن عمر بن الخطاب ﷺ استعمل مولى له يدعى هُنَيًّا على الحِمَى فقال: يا هُنَيّ أضمم جناحك عن المسلمين ... » الحديث يقول الإمام ابن حجر في شرحه

للحديث: « وهذا المولى لم أر من ذكره في الصحابة مع إدراكه، وقد وجدت له رواية عن أبي بكر وعمر وعمرو بن العاص. روى عنه ابنه عمير وشيخ من الأنصار وغيرهما وشهد صفين مع معاوية ثم تحول إلى علي لما قتل عمار... **ولولا أنه كان من الفضلاء النبهاء الموثوق بهم** لما استعمله » أ.هـ فتح الباري جـ٩ ص١٩٢ ط. دار الغد العربي.

ثم ترجم له في تقريب التهذيب فقال: « هُنَى مولى عمر استعمله عمر على الحمى وهو ثقة من الثانية ... » .

فعلة توثيق (هُنَىّ) هي نفسها علة توثيق مالك الدار في حديثنا هذا بل هي أوضح وأقوى في مالك الدار الذي ولاه عمر ثم عثمان رضي الله عنهما بيت المال والقسم بل نقول أنه تعديل وتوثيق أقوى من التعديل والتوثيق اللفظي الصريح !

الثاني: ومع ذلك فقد وثقه الأئمة باللفظ الصريح، فمالك الدار ثقة، وفوق الثقة، متفق عليه، أثنى عليه جمع من التابعين.

وهو: مالك بن عياض مولى عمر بن الخطاب، ذكره الحافظ في المخضرمين في (الإصابة) (٤٨٤/٣). وقال: له إدراك وسمع من أبي بكر الصديق، وروى عن الشيخين ، ومعاذ، وأبي عبيدة، روى عنه أبو صالح السمان وابناه عون وعبد الله ابنا مالك، ثم ذكر بعد كلام في الرواة عنه: **عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع الثقة.**

وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من التابعين في أهل المدينة (٦/٥)، وقال: **وكان معروفاً** أ.هـ.

وقال أبو عبدة كما في (الإصابة) (٤٨٤/٣):

ولاه عمر وكلة عياله، فلما قدم عثمان ولاه القسم أ.هـ.

وفيها أيضاً قال إسماعيل القاضي عن علي بن المديني: **كان مالك الدار خازناً لعمر.** أ.هـ.

وأجاد الحافظ أبو يعلى الخليلي فقال في الإرشاد (٣١٣/١): مالك الدار مولى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه **تابعي قديم متفق عليه، أثنى عليه التابعون.** أهـ.

ووثقه ابن حبان في (الثقات) (٣٨٤/٥).

فأي ثناء يطلب بعد هذا في الرجل حتى يصحح حديثه؟

وأي حجة تطلب في توثيق الرجل بعد ذلك؟

فتوثيق جمع له وخاصة إذا كانوا معاصرين ومن التابعين الذين هم خير القرون بعد القرن الأول لا تجده إلا في أفذاذ الثقات.

فالرجل متفق على الاحتجاج به بلا مرية كما هو ظاهر كلام الخليلي.

ولفرط دينه وأمانته استعمله (عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان) رضي الله عنهما.

الثالث: مالك الدار كما سبق له إدراك، وكل من له إدراك اختلفوا في صحبته ومن اختلف في صحبته لا يسأل عن حاله، انظر كلام الحافظ ابن حجر على (أسماء بنت سعيد بن زيد) في (التلخيص الجبير) ٧٤/١ فالنتيجة أن مالك الدار ثقة لا يسأل عن حاله.

الرابع: إن تشدّدنا وأعرضنا عن كل توثيق سبق فهو عدلُ الظاهر برواية أربعة ثقات عنه، بله اعتماد أئمة الصحابة له. فلا يخرج عن كونه- في أدنى الأحوال ومع كامل التشدد- من مستورى التابعين وقد قَبِلَ الأئمةُ حديثهم. قال ابن الصلاح في مقدمته (ص١٤٥):

ويشبه أن يكون العمل على هذا الرأي (وهو قبول رواية المستور) في كثير من كتب الحديث المشهورة في غير واحد من الرواة الذين تقادم العهد وتعذرت الخبرة الباطنة بهم. والله أعلم.

ومن أكبر الأدلة على قبول رواية المستور هو تصحيح الشيخين البخاري ومسلم لحديثهم.

قال الذهبي في « الميزان » (٥٥٦/١) في ترجمة حفص بن بُغَيل: ففي الصحيحين من هذا النمط خلق كثير مستورون ما ضعفهم أحد ولا هم بمجاهيل » . أهـ.

وقال الذهبي في « الميزان » أيضاً (٤٢٦/٣) في ترجمة مالك بن الخير الزيادي:

وفي رواة الصحيحين عدد كثير ما علمنا أن أحداً نص على توثيقهم والجمهور على أن من كان من المشايخ قد روى عنه جماعة و لم يأت بما ينكر عليه أنّ حديثه صحيح » . أهـ.

وقد نصّ الذهبي رحمه الله في مقدمة كتابه (المغنى في الضعفاء) الصفحة (ك) « وأما المجهولون من الرواة فإن كأن الرجل من كبار التابعين أو أوساطهم احتمل حديثه وتلقى بحسن الظن إذا سلم من مخالفة الأصول ومن ركاكة الألفاظ ... » الخ.

ومالك الدار أجلّ من كبار التابعين إذ له إدراك واعتبره فريق من أهل العلم صحابيا لأجل ذلك.

وقد صححه الحافظان ابن كثير في « البداية » (١٠١/٧)، وابن حجر في « الفتح » (٤٩٥/٢)

وقال ابن كثير في جامع المسانيد- مسند عمر ٢٢٣/٠١): إسناده جيد قوى. أهـ.

وأخرج الدارمي في سننه (٢٢٧/٠١) باب (١٥) (ما أكرم الله تعالى نبيه بعد موته) قال:

حدثنا أبو النعمان، ثنا سعيد بن زيد، ثنا عمرو بن مالك النكري، حدثنا أبو الجوزاء أوس بن عبد الله قال:

« قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجْعَلُوا مِنْهُ كُواً إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، قال: ففعلوا، فمطرنا مطراً حتى نبت العشْبُ وسمنتُ الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمى عام الفتق » . أ.هـ[1].

وأقر ابن تيمية بثبوته في اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٧٣).

فالحديث بحمد الله صحيح في أعلى درجات الصحة وهو نص صريح يرفع الإلتباس.

(١) سنن الدارمي ط. دار المغنى ط الأولى تحقيق حسين سليم أسد ويقول المحقق في هذا الحديث:

« رجاله ثقات وهو موقوف على عائشة وما وجدته في غير هذا المكان » أ.هـ.

وشيخ الدارمي هنا هو أبو النعمان محمد بن الفضل السدوسي ثقة مشهور اختلط بآخرة وروايـة الدارمي عنه هي قبل اختلاطه وسعيد بن زيد: حسن الحديث تُكلم فيه، لكن وثقه ابن معين وابن سعد والعجلي وسليمان بن حرب وغيرهم.

وقد احتج به مسلم في صحيحه.

وقد كفانا الحافظُ الذهبي مؤنةَ تفصيل القول في قبول حديثه بإيراده إياه في جزء « من تُكِلمَ فيـه وهو موثق » (ص٨٥)، وحديثهم لا ينزل عن درجة الحسَن عنده، وعمرو بن مالك النكري: ثقة. وثقه ابن حبان والذهبي وحسّن حديثه المنذري والهيثمي وقال عنه الحافظ ابن حجـر في التقريب: صدوق له أوهام ومقتضاها أيضاً أنه حسن الحديث.

وعاد الألباني فاعترف بأنه ثقة في موضعين: تعليقه على فضل الصلاة علـى الـنبي ﷺ (ص٨٨)، الصحيحة (٦٠٨/٥).

وأبو الجوزاء هو أوس بن عبد الله البصري: ثقة احتج به الجماعة سمع عائشة وأخرج حديثه عنها

وهذا إسناد حسن إن شاء الله.

وفتح هذه الكوى هو مبالغة في الاستشفاع به ﷺ كما هي السنة في الخروج للخلاء للإستسقاء.

وهو نص يضاف إلى سابقه في إثبات توسل الصحابة رضي الله عنهم بالنبي ﷺ بعد وفاته.

وبالضرورة كان في المدينة في هذا الوقت صحابة وتابعون و لم ينكروا عليها ذلك.

وفعل الصحابة في الخبرين السابقين هو اتباع للإرشاد الإلهي في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وهذه الآية تشمل حالتي الحياة وبعد الانتقال لأن الفعل في سياق الشرط يفيد العموم، وأعلى صيغ العموم ما وقع في سياق الشرط، كما في (إرشاد الفحول) وغيره.

فالتوسل به ﷺ في قبره بعد وفاته مندرج في هذه الآية الكريمة.

والغاية من هذا البحث كله بيان أن فعل المسلمين في التوسل والاستغاثة بالحيّ، أو الميت فيما يقدر عليه وما لا يقدر عليه لا يعني إلاّ طلب التسبّب في قضاء الحاجة بالدعاء والتشفع، وذلك مقدور عليه يستوي في ذلك الأحياء والأموات لما لهم من إدراكات وقدرة على الدعاء.

مسلم في صحيحه والحاصل: أن هذا إسناد حسن أو صحيح ورجاله رجال مسلم ما خلا عمرو بن مالك النكري وهو ثقة.

وليس بمسموح أبداً أن نظن بالمتوسل المسلم غير ذلك بقرينة شهادته أن لا إله إلا الله.

وغاية ما يصل إليه المخالف في وصف فعل المتوسل الذي يطلب من الوسيلة مالا يقدر عليه أن يكون هذا المتوسل مخطئاً مأجوراً على اجتهاده.

والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث
حقيقة العبادة

أولاً: لما رأى البعض أن المشركين كانوا يتقربون لآلهتهم بالذبح والنذر والدعاء والاستعانة والاستغاثة والاستشفاع والسجود والتعظيم ونحو ذلك، تخيلوا أن مجرد إتيان هذه الأعمال والأقوال هي العبادة لذاتها وأن كل عمل أو قول يصلح للتعبد به لا يقع إلا عبادة، إن وقع لله فهو التوحيد، وإن وقع لغيره فهو الشرك .

كما تخيلوا أن شرك المشركين إنما كان بإتيان هذه الأمور لمن اتخذوهم أربابا وإن المشركين كانوا مقرّين بتوحيد الربوبية ولذلك لم تدع الرسل إليه.

وكل ذلك تخيل باطل، فإن العبادة ليست مجرد إتيان العمل والقول الذي يصلح للتعبد به؛ بل هي إتيان تلك الأعمال والأقوال بنية العبادة لمن يعتقد فيهم شيئاً من صفات الربوبية أو خصائصها.

والمشركون إنما توجهوا لآلهتهم بالأعمال والأقوال بنية عبادتهم، لاعتقادهم فيهم بعض خصائص الربوبية، فاعتقدوا نفوذ مشيئتهم بالشفاعة الشركية، وبتخويلهم التصرف في شؤون أهل الأرض استقلالاً بقدرة كن وإذا كان كذلك فاعلم أنهم فسروا العبادة بالإتيان بأقصى غاية الخضوع وأرادوا بذلك المعنى اللغوي.

أما معناها الشرعي فهو الإتيان بأقصى غاية الخضوع قلباً باعتقاد ربوبية المخضوع له، أو قالباً مع ذلك الاعتقاد- وأو فيه للتقسيم- فإن انتفى ذلك

الاعتقاد لم يكن ما أتى به الخضوع الظاهري من العبادة شرعا في كـــثير ولا قليل مهما كان المأتي به ولو سجودا ومثل اعتقاد الربوبية اعتقاد خصيصة من خصائصها، كالاستقلال بالنفع والضر، وكنفوذ المشيئة لا محالة ولو بطريـــق الشفاعة لعابده عند الرب الذي هو أكبر من هذا المعبود.

وإنما كفر المشركون بسجودهم لأوثانهم ودعائهم إياهم، وغيرهما مـــن أنواع الخضوع لتحقق هذا القيد فيهم، وهو اعتقادهم ربوبية ما خضعوا له، أو خاصة من خواصها كما سيأتيك تفصيله.

ولا يصح أن يكون السجود لغير الله- فضلا عما دونه من أنواع الخضوع- بدون هذا الاعتقاد عبادة شرعا، فإنه حينئذ يكون كفراً، وما هو كفر، فلا يختلف باختلاف الشرائع، ولا يأمر الله عز وجل به ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[2]، وذلك ظاهر إن شاء الله.

وها أنت ذا تسمع الله تعالى قد قال للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾[3]. وقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[4]. وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[5].

---

(١) الآية ٢٨، من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٧، من سورة الزمر.

(٣) الآية ٣٤، من سورة البقرة.

(٤) الآية ٧٦، من سورة ص.

(٥) الآية ٦١، من سورة الإسراء، ومن هنا أُتي إبليس من هذه الشبهة فلم يفرق بين أمر الله وهو طاعة له سبحانه وتعالى وبين عبادة المسجود له وما آدم إلا قبلة لا معبود.

وهذا نبي الله يعقوب وامرأته وأولاده الأحد عشر، قال الله فيهم: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾[1] أي ليوسف ﷺ .

قال الحافظ بن كثير في تفسيرها:

«أي سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلا، وقد كان هذا سائغا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له. ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام. فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب تعالى. هذا مضمون قول قتادة وغيره » .

وفي الحديث «أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: ما هذا يا معاذ؟ فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك. قال: لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » [2].

وفي حديث آخر: « أن سلمان لقى النبي ﷺ في بعض طرق المدينة- وكان سلمان حديث عهد بالإسلام- فسجد للنبي ﷺ ، فقال: « لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت » والغرض إن هذا كان جائزاً في شريعتهم. أهـ.

وقال الإمام أبو جعفر الطبري في تفسيرها[3] نحواً من هذا.

وقد علمت أن ما هو كفر لا يختلف باختلاف الشرائع ولا يأمر الله به

---

(١) الآية ١٠٠، من سورة يوسف.

(٢) أخرجه الترمذي بنحوه في سننه، كتاب الرضاع – باب: ما جاء في حق الزوج على المرأة (ح١١٥٩)، عن أبي هريرة. وهو حديث صحيح له شواهد بمعناه.

(٣) تفسير الآية رقم (١٠٠) من سورة يوسف.

في حين من الأحيان. فلم يكن سجود الملائكة لآدم ولا السجود ليوسف عليهما الصلاة والسلام مع خلو الساجدين من اعتقاد خصيصة من خصائص الربوبية بمن سجدوا له كفراً، بل هو من الملائكة عبادة الله الذي أمرهم سبحانه، وممن سجد ليوسف تحية جائزة، ونسخ الجواز في شريعتنا.

وإنما حكم العلماء بالكفر على من سجد لشمس أو قمر أو وثن من أجل أنه أمارة على الكفر الذي هو إنكار ما علم من الدين بالضرورة كما حكموا بالإيمان- وهو معنى قلبي كما علمت- لمن نطق بالشهادتين من أجل أنه دليل عليه، لا لأن الأول بمجرده كفر والثاني بمجرده إيمان.

وانظر إلى نفسك فإنه قد يقضي عليك أدبك مع أبيك واحترامك له أن لا تسمح بالجلوس أو الاضطجاع بين يديه فتقف أو تقعد ساعة أو فوقها، ولا يكون ذلك منك عبادة له، لماذا؟.

لأنه لم يقارن هذا الفعل منك اعتقاد شيء من خصائص الربوبية فيه.

وتقف في الصلاة قدر الفاتحة وتجلس فيها قدر التشهد وهو قدر دقيقة أو دقيقتين فيكون ذلك منك عبادة لمن صليت له، وسر ذلك هو أن هذا الخضوع الممثل في قيامك وقعودك يقارنه اعتقادك الربوبية لمن خضعت له عز وجل.

وتدعو رئيسك في عمل من الأعمال، أو أميرك أن ينصرك على باغ عليك، أو يغيثك من أزمة نزلت بك وأنت معتقد فيه أنه لا يستقل بجلب نفع، أو دفع ضر، ولكن الله جعله سببا في مجرى العادة يقضي على يديه من ذلك ما يشاء فضلاً منه سبحانه، فلا يكون ذلك منك عبادة لهذا المدعو وأنت على ما وصفنا، فإن دعوته وأنت تعتقد فيه أنه مستقل بالنفع، أو الضر، أو نافذ المشيئة مع الله لا محالة، كنت له بذلك الدعاء عابداً، وبهذه

العبادة أشركته مع الله عز وجل، لأنك قد اعتقدت فيه خصيصة من خصائص الربوبية، فإن الاستقلال بالجلب، أو الدفع ونفوذ المشيئة لا محالة هو من خصائص الربوبية، والمشركون إنما كفروا بسجودهم لأصنامهم ونحوه لاعتقادهم فيها الاستقلال بالنفع، أو الضر ونفوذ مشيئتهم لا محالة مع الله تعالى، ولو على سبيل الشفاعة عنده، فإنهم يعتبرونه الرب الأكبر ولمعبوداتهم ربوبية دون ربوبيته، وبمقتضى ما لهم من الربوبية وجب لهم نفوذ المشيئة معه لا محالة.

ويدل لما قلنا آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾[1] وقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾[2] والاستفهام في الآيتين إنكاري على سبيل التوبيخ لهم على ما اعتقدوه.

ثانياً: وحكى الله عن قوم هود قولهم له عليه السلام: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾[3] ، وقوله لهم: ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾[4] الآية وكقوله تعالى موبِّخا لهم

---

(١) الآية ٢٠، من سورة تبارك.

(٢) الآية ٤٣، من سورة الأنبياء.

(٣) الآية ٥٤، من سورة هود.

(٤) الآية ٥٥، ٥٦، من سورة هود.

يوم القيامة على ما اعتقدوه لها من الاستقلال بالنفع ووجوب نفوذ مشيئتها: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾[1] وقولهم وهم في النار: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يخاطبون من اعتقدوا فيهم الربوبية وخصائصها: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

فانظر إلى هذه التسوية التي اعترفوا بها حيث يصدق الكذوب، ويندم المجرم حين لا ينفعه ندم. فإن التسوية المذكورة إن كانت في إثبات شيء من صفات الربوبية فهو المطلوب.

ومن هذه الحيثية شركهم وكفرهم؛ لأن صفاته تعالى تجب لها الوحدانية بمعنى عدم وجود نظير لها في سواه عز وجل، وإن كانت التسوية في استحقاقها للعبادة فهو يستلزم اعتقاد الإشتراك فيما به الاستحقاق، وهو صفات الألوهية أو بعضها، وإن كانت في العبادة نفسها فهي لا تكون من العاقل إلا لمن يعتقد استحقاقه لها كرب العالمين، تعالى الله عما يشركون.

وكيف ينفى عنهم اعتقاد الربوبية بآلهتهم، وقد اتخذوها أنداداً وأحبوها كحب الله، كما قاله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[3].

والأنداد جمع ند وهو على ما قاله أهل التفسير واللغة: المثل المناوئ.

---

(١) الآية ٩٢، ٩٣، من سورة الشعراء.

(٢) الآية ٩٦، من سورة الشعراء.

(٣) الآية ١٦٥، من سورة البقرة.

فهذا ينادى عليهم أنهم اعتقدوا فيها ضرباً من المقاومة للحق تعالى عما يقولون.

فأما نفوذ مشيئتهم بالشفاعة الشركية فقد اعتقدوا أن لآلهتهم حق الشفاعة المحتمة القبول بحكم شراكتهم لله في الربوبية وإن لم يرض بها الله وقد دل على اعتقادهم هذا آيات كثيرة نفت شراكة أربابهم له تعالى ونفت أن يكون لهم حق الشفاعة لأنه لا يملك الشفاعة إلا من جعله الله من الشفعاء.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾[1]، و﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾[2].

ففي الآيتين دلالة على اعتقادهم أن لألهتهم شراكة في الملك وأن لهم الشفاعة بمقتضى هذه الشراكة وأنهم قد دعوهم بالفعل يوم القيامة ليشفعوا لهم فخاب ظنهم.

ومن هذه الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ

---

(١) الآية ٩٤، من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٦٤، من سورة القصص.

(٣) الآية ١٨، من سورة يونس.

(٤) الآية ١٠٩، من سورة طه.

﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [1]

وقوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾[2].

فهذه الآيات نفت أن يكون لألهتهم حق الشفاعة وأوضحت أنه تعالى وحده الذي يملك الشفاعة، وأنه لا يشفع إلا من رضي الله شفاعته بجعله من الشفعاء وأنه إذا شفع فقبولها وعدم قبولها موكول إلى رضاه تعالى لا كما اعتقد المشركون أن شفاعة ألهتهم محتمة القبول بحكم شراكتهم في الألوهية.

وأما نفوذ مشيئة أربابهم في التصرف في شئون أهل الأرض فقد اعتقدوا أن الله قد خول أربابهم حق التصرف في شؤون أهل الأرض فتصرفوا فيهم استقلالا بقدرة كن « نفعا وضرا ونصرا وحماية وتوسعة في الرزق وقضاء للحوائج وإنقاذا من عذاب الآخرة وشراكة في الملك» .

وقد دل على أن هذا هو اعتقادهم آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [3]-﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[4] - ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[5].

---

(١) الآية ٨٦، من سورة الزخرف، إلا من شهد بالحق وكلمة الحق هي لا إله إلا الله محمد رسول الله فاستثنى الله من الشفعاء المردودة شفاعتهم واثبتها لمن شهد بالحق.

(٢) الآية ٢٣، من سورة يس.

(٣) الآية ٣٦، من سورة الزمر.

(٤) الآية ٥٤، من سورة هود.

(٥) الآية ١٩٥، من سورة الأعراف.

هذه الآيات تدل على اعتقادهم أن لآلهتهم التصرف استقلالا بالنفع والضر.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾[1] - ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾[2].

وواضح من هذه الآيات أنهم كانوا يعتقدون أن لآلهتهم قدرة على نصرهم وحمايتهم وأنه سيتبين لهم يوم القيامة غرورهم في هذا الاعتقاد.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾[3] - ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4]، ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[5].

فالآية الأولى تشير إلى اعتقاد المشركين أن لأربابهم قدرة على التوسعة عليهم في الرزق، والآية الثانية تشير إلى اعتقادهم أن لأربابهم قدرة على

---

(١) الآية ٢٠، من سورة تبارك.

(٢) الآية ٤٣، من سورة الأنبياء.

(٣) الآية ١٧، من سورة العنكبوت.

(٤) الآية ١٩٤، من سورة الأعراف.

(٥) الآية ١٦٦، من سورة البقرة.

قضاء حوائجهم بما لهم من نفوذ المشيئة في التصرف استقلالاً أو بالشفاعة الشركية وقد أكد أن ذلك هو اعتقادهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والآية الثالثة تشير إلى اعتقادهم أن لأربابهم قوة وأنهم ما زالوا على ذلك الاعتقاد حتى انكشف الأمر لهم يوم القيامة وظهر لهم أن الحول والطول لله وحده.

ومنها قوله تعالى ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾[1] ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾[2].

فالآيتان توبيخ لهم يوم القيامة على ما اعتقدوه في آلهتهم من نفوذ المشيئة في التصرف استقلالاً لإنقاذهم ونصرهم فخاب ظنهم، وبينت الآيات أن ذلك الاعتقاد كان راسخا فيهم إلى أن انكشف لهم يوم القيامة عجز آلهتهم عن انقاذهم وخيبة ظنهم فيما كانوا يعتقدونه فيهم من مشيئة نافذة وقدرة.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[3] ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

---

(١) الآية ٩٣، من سورة الشعراء.

(٢) الآية ٤٨، من سورة فصلت.

(٣) الآية ٦٦، من سورة يونس.

تشير الآيات إلى أن المشركين كانوا يعتقدون أنهم يعبدون أرباباً لهم شراكة في الملك ولهم نفوذ مشيئة، كما يخبر بأن ذلك الاعتقاد هو مجرد ظن، وأن ظنهم هذا ما هو إلا رجم بالغيب. ومنها قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

فالآية تشير إلى أن المشركين كانوا يعتقدون أن لأربابهم شراكة مع الله في ربوبيته، فلذا طالبهم الله بالدليل على صدق ما يزعمون[2].

وكيف يتخيل أحد أن الكفار كانوا مؤمنين بالله موحدون به توحيد ربوبية وهم قد وصفهم سبحانه بأنهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾[3].

فما هو هذا الميثاق وهذا العهد؟.

أليس هو العهد الأول في عالم الذر ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[4]؟

---

(١) الآية ٤٠، من سورة فاطر.

(٢) لاحظ كلمة (من دون) حيث تأتي دائما مقترنة بمن اعتقدوه (ربّا) من دون الله وليس شفيعا فقط.

(٣) الآية ٢٥، من سورة الرعد.

(٤) الآية ١٧٣، من سورة الأعراف.

فهل أخذ الله عليهم العهد الأول بعبارة ألست بإلهكم؟

ألم يقل الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ... ﴾[1] الآية.

فلماذا يكون مصير الكفار بعد ذلك إلى النار وهم قد وحدّوا ربهم؟ ألم يقل فرعون ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2] فأين توحيد الربوبية عنده وعند تابعيه؟

ألم يخبرنا رسول الله ﷺ أن الملكين يسألان العبد في قبره فيقولان له: من ربك؟ ولم يقولا له: من إلهك؟

والحق أن كلمتي (ربّ)، (إله) في القرآن والسنة قد وردتا بنفس الاستعمال وقد وردتا في نفس المواضع.

إن الدليل على أن الإله والرب واحد ورود ذلك في القرآن والسنة قال الله تعالى في سورة يوسف ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[3] فقال بعدها: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾[4] فالعبادة إنما كانت للأرباب المتفرقين.

وقال الله تعالى في حق عيسى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾[5]، ثم قال الله في الآية الأخرى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

---

(١) الآية ٣٠، من سورة فصلت.

(٢) الآية ٢٤، من سورة النازعات.

(٣) الآية ٣٩، من سورة يوسف.

(٤) الآية ٤٠، من سورة يوسف.

(٥) الآية ٨٠، من سورة آل عمران.

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [1].

وقال سبحانه في حق الملائكة على اعتقاد مشركي العرب في الآية السابق ذكرها: ﴿... أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾[2] وقال في حق الملائكة في الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾[3].

والحاصل أن القرآن ملآن من تسمية الرب إلهاً والإله ربا فهما بمعني واحد فالمشرك لابد أن يشرك بالربوبية ولا يعبد الله ويعبد تلك الأرباب الباطلة والدليل على هذا أن كلمة لا إله إلا الله هو توحيد الربوبية وتوحيد الإلوهية ولو كان توحيد الإلوهية كما يقولون لاقتضى أن لتوحيد الربوبية كلمة أخرى غير هذه ولا قائل بذلك.

وقد ذكر السنوسي أن هذه الكلمة للتوحيدين وأن الإله رب وهو المعبود كما قدمناه لتلازمهما وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾[4] أو قال تعالى عن الكافر يقول يوم القيامة أو في الدنيا ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾[5].

---

(١) الآية ١١٦، من سورة المائدة.

(٢) الآية ٨٠، من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٢٩، من سورة الأنبياء.

(٤) الآية ٣٨، من سورة الكهف.

(٥) الآية ٤٢، من سورة الكهف.

وأما من السنة فمنها حديث الصحيحين في رؤية الله تعالى "أن كل عابد يتبع معبوده، فيبقى المؤمنون فيتجلى لهم في صورة غير معروفة فيقولون: نعوذ بالله منك، ثم يتجلى لهم في الصورة التي يعرفون، فيقولون: أنت ربنا حقاً"[1] فدل هذا الحديث على أن الشرك كان في الرب، فيتجلى لهم في غير صورته امتحاناً ليرى صدق معرفتهم لربهم.

وفي (مجمع الزوائد)[2] حديث الدجال وأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ويقول للناس: أنا ربكم، وقال ﷺ: « ألا إنّه أعور، وإنّ ربكم ليس بأعور»[3] .

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: « قلت يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »[4].

وذكر وأخرج الحاكم في المستدرك عن المغيرة بن شعبة:

لما كانوا بالقادسية قال له المجوسي: إنكم معاشر العرب قد عرفت الذي حملكم على المجئ إلينا، أنتم قوم لا تجدون في بلادكم من الطعام ما تشبعون

---

(١) صحيح البخاري- كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ح٧٤٣٧، صحيح مسلم- كتاب الإيمان- باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم ح٢٩٩، ح٣٠٢.

(٢) مجمع الزوائد ٣٣٦/٧ قال الحافظ الهيثمي عقب الحديث « رواه الطبراني وأحمد ورجاله رجال الصحيح » أ.هـ.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الفتن- باب ذكر الدجال (ح ٧١٣١).

(٤) صحيح مسلم –كتاب الإيمان- باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل ح [٣٦٥] (٢١٤) ط. دار الخير ٤٤٤/١.

منه، فخذوا نعطيكم من الطعام حاجتكم... فقال له المغيرة بن شعبة: « والله ما ذاك جاء بنا ولكنا كنا قوماً نعبد الحجارة والأوثان، فإذا رأينا حجراً أحسن من حجر ألقيناه وأخذنا غيره، ولا نعرف رباً حتى بعث الله إلينا رسولاً من أنفسنا فدعانا إلى الإسلام فاتبعناه... » الحديث[1]، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وأدل دليل على أن شرك الكفار في الربوبية أن الميت في قبره يسئل عن الربوبية فيقول الملكان له: من ربك والكافر يقول: لا أدري، والمؤمن يثبته الله في القول الثابت وهو الإقرار بتوحيد الربوبية كما في الأحاديث الصحيحة.

ثالثاً: وأما دعوى أن الرسل لم تخاصم المشركين في توحيد الربوبية فالآيات تدل على أن الرسل كما خاصموا المشركين في صرفهم العبادة لغير الله، فكذلك خاصمتهم في إثباتهم بعض خصائص الربوبية لغير الله من نفوذ شفاعتهم عليه تعالى بحكم شراكتهم له في الربوبية، ومن نفوذ مشيئة من اتخذوهم أربابا بجعلهم متصرفين فيهم استقلالاً بقدرة كن « نفعاً وضراً ونصراً وإعطاءً ومنعاً وتوسعةً في الرزق وشراكة في الملك والربوبية » .

وفي دعوة الرسل للمشركين إلى عدم الإشراك في خصائص الربوبية وردت آيات كثيرة فقال إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾[2] يعني لا أربابكم التي تعبدونها.

---

(١) المستدرك – كتاب معرفة الصحابة- ذكر مناقب المغيرة بن شعبة (ح٥٩٠١/١٤٩٩) ط العلمية ٣/٥١٠-٥١١.

(٢) الآية ٥٦، من سورة الأنبياء.

ولما قال النمروذ: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾[1]، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾[2] أليس هذا جدالا في خصائص الربوبية !!

وقال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾[3] أليس هذا دعوة من إبراهيم عليه السلام إلى عدم إشراك آلهتهم في اعتقاد نفعها وضرها.

وقال يوسف عليه السلام وهو يدعو صاحبي السجن إلى التوحيد ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[4] وقال فرعون ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[5].

وقوله لموسى عليه السلام ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[6] وجواب موسى عليه السلام عليه ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾[7] ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[8].

---

(١) الآية ٢٥٨، من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٥٨، من سورة البقرة.

(٣) الآية ٨٠، من سورة الأنعام.

(٤) الآية ٣٩، من سورة يوسف.

(٥) الآية ٢٤، من سورة النازعات.

(٦) الآية ٢٣، من سورة الشعراء.

(٧) الآية ٢٤، من سورة الشعراء.

(٨) الآية ٢٨، من سورة الشعراء.

وقول هارون عليه السلام لمن عبدوا العجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[1] يعني لا هذا العجل.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾[2] ألا تدل هذه الآيات على دعوة الرسل لأقوامهم إلى عدم الإشراك في الربوبية، وإلى عدم إثبات شيء من خصائص الربوبية إلى غير الله مما يدل على إشراك المشركين معبوداتهم في خصائصه تعالى، وعلى خصومة الرسل لهم في هذا الإشراك.

وتبين بما قدمناه من آيات بطلان دعوى من أدعى أن جميع الأمم مقرون بتوحيد الربوبية وأن الرسل لذلك لم تدع إليه، وأنها إنما دعت فقط إلى توحيد الله بعبادته.

رابعاً: والذين ادعوا أن جميع مشركي الأمم مقرون بتوحيد الربوبية وأنهم إنما كفروا فقط لإخلالهم بالألوهية « أي بعبادة غير الله » هي دعوى مناهضة لما سردناه من آيات تدل على إشراك المشركين لمعبوداتهم في بعض خصائصه تعالى.

وما احتجوا به من آيات على دعواهم كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ

---

(١) الآية ٩٠، من سورة طه.

(٢) الآية ١٦٤، من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٦١، من سورة العنكبوت.

ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[5].

ولا دليل في هذه الآيات وأمثالها على دعواهم أن مشركي الأمم مقرون بتوحيد الربوبية- لوجوه ثلاثة:

أولها: أن دعواهم تشمل جميع مشركي الأمم بينما هذه الآيات لم تنزل إلا في مشركي العرب في زمنه ﷺ.

---

(١) الآية ٨٦، من سورة المؤمنون.

(٢) الآية ٦٣، من سورة العنكبوت.

(٣) الآية ٣١، من سورة يونس.

(٤) الآية ٣٨، من سورة الزمر.

(٥) الآية ٨٨، من سورة المؤمنون.

وثانيها: أن الوقائع المروية والمشاهدة تثبت أن طوائف من الناس تنكر وجود الله كالدهرية ومنهم بعض المشركين الذين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (١).

وطوائف أخرى تنكر وحدانية الله كالثنوية الذين يقولون بإلهين للخير والشر، والصابئة عبدة الكواكب الذين أثبتوا للكواكب تدبيراً استحقت من أجله العبادة ورفع الحاجات إليها، وإن لها أثرا عظيماً في الحوادث اليومية وسعادة المرء وشقائه وصحته وسقمه، فهل يصدق على هؤلاء الذين يثبتون التدبير لغيره تعالى أنهم موحدون توحيد الربوبية؟

وكذلك أثبت القرآن أن النمرود وفرعون كانا يدعيان الربوبية، والأول حاجّ إبراهيم في ربه وقال ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾(٢)، والثاني قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣)، وقال أيضاً: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾(٤) وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٥).

فكل هؤلاء وأمثالهم بعيدون عن معرفة الربوبية فضلاً عن الإقرار بالتوحيد بها.

---

(١) الآية ٢٤، من سورة الجاثية.

(٢) الآية ٢٥٨، من سورة البقرة.

(٣) الآية ٢٣، من سورة الشعراء.

(٤) الآية ٣٨، من سورة القصص.

(٥) الآية ٢٤، من سورة النازعات.

وقال تعالى عن مشركي العرب: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي ﴾[1]، فأين توحيد الربوبية عندهم؟!

وفي قولهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[2] كذبهم سبحانه في نفس الآية.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[3].

فأين إقرارهم بربوبيته تعالى، فالنكير في الآية على عبادة غيره سبحانه وتعالى وليس التقرب إلى الله زلفى، مما يدل على إشراكهم في العبادة مع الله غيره وليس اعتقادهم بأنهم شفعاء إلى الله فقط.

وثالثها: إن الآيات التي سردوها تدل على أن المشركين كانوا معترفين ببعض خصائص الربوبية وهو إقرارهم بوجود الصانع وحصر خلق العرش والسموات والأرض وسائر الجواهر فيه تعالى، وحصر تدبير الأمور العظام فيه تعالى من تسخير الشمس والقمر وإنزال الغيث وإنبات النبات ونحو ذلك وأنه تعالى إذا أبرم أمرا و لم يترك لغيره خيرة فيه فليس لأحد قدرة على الممانعة.

ولكن الآيات التي سردناها من قبل وأمثالها تدل على إشراك المشركين في بعض آخر من خصائص الربوبية، فكانوا يثبتون لمن اتخذوهم أربابا شفاعة

---

(١) الآية ٣٠، من سورة الرعد.

(٢) الآية ٣ ، من سورة الزمر.

(٣) الآية ١٠٨، من سورة الأنعام.

نافذة محتمة القبول، ولو لم يرض بها بمقتضى شراكتهم في الربوبيـــة، كمـــا كانوا يثبتون لأربابهم نفوذ مشيئتهم في أهل الأرض تخويلا من الله لهـــم إلا فيما أبرمه من أمر فيتصرفون فيهم استقلالا بقدرة كن « نفعاً وضراً ونصراً وإعطاءً ومنعاً وتوسعةً في الرزق وشراكةً في الملك والربوبية » .

فكان اعتقادهم هذا الشرك في الربوبية وقولـــه تعـــالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1] .

وكذلك لما كانت النفوس تخضع بالعبادة لمن تقر لـــه وحـــده بـــالخلق والتدبير، فعبادة المشركين لغير الله تدل على أن توحيد الخلق والتدبير لم يكن مستقراً في نفوسهم لله وحده، وأنه لا توحيد مع عدم اطمئنان النفس إليـــه واستقرارها عليه وثباتها فيه.

وعلى كل الأحوال فإن من يقر ببعض صفات الربوبية ويشرك في بعض خصائصها لا يقال عنه: أنه مقر بتوحيد الربوبية.

كيف! والقرآن يحكي أن المشركين لم يقاتلوا المسلمين ويخرجوهم من ديارهم إلا لذلك، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ... ﴾[2].

ولذا فإن الرسل كما كانت تدعوهم إلى عدم عبادة غير الله وصرفها إلى الله وحده كذلك دعتهم إلى عدم إثبات شيء من خصائص الربوبية لغير الله.

---

(١) الآية ١٠٦، من سورة يوسف.

(٢) الآيتان ٣٩،٤٠ من سورة الحج

خامسا: وحيث قد تبين أن اعتقاد المشركين نفوذ المشيئة ونفوذ الشفاعة لمن اتخذوهم أربابا قد حملهم على عبادتها، وضح أنهم كانوا يأتون الأعمال والأقوال التي يتعبدون بها بنية العبادة لهم، لاعتقادهم فيهم خصائص من خصائص الربوبية.

ووضح بذلك أيضاً أن العبادة ليست مجرد إتيان العمل، أو القول الذي يصلح للتعبّد به.

بل هي إتيان تلك الأعمال والأقوال بنية العبادة لمن يعتقد فيه شيئاً من صفات الربوبية، أو خصائصها من تحليل وتحريم، أو علم ذاتي غير مكتسب، أو نفوذ شفاعة بمقتضى الشراكة في الربوبية أو نفوذ مشيئة بما جعلهم متصرفين فيه في أهل الأرض استقلالا بقدرة كن « نفعاً وضراً ونصراً وإعطاءً ومنعاً وشراكةً في الملك والربوبية » فذلك عبادة لله إن صرف له تعالى؛ وشرك إن صرف لغير الله، لا فرق في ذلك بين وقوعه لحي أو ميت أو في الحياة الدنيا أو الآخرة.

أما إن خلا العمل، أو القول من نية العبادة لمن اتخذوه ربا أو لمن اعتقدوا فيه شيئاً من خصائص الربوبية فليس من العبادة في شيء ولا يقال فيه: إنه عبادة لله أو لغيره.

ومما يوضح ذلك السجود لآدم لما خلا من نية العبادة لآدم لم يكن شركا بل كان طاعة لله لاقترانه بنية الأمتثال له تعالى.

والسجود ليوسف عليه السلام لما خلا من نية العبادة؛ بل كان تحية له لم يكن شركا، ولم يكن عبادة لا لله ولا ليوسف، وإن كان سجود التحية قد حرم في شريعتنا، وتعظيم البيت بالطواف حوله وتقبيل الحجر لما خلا من نية العبادة للبيت، أو للحجر لم يكن شركا؛ بل كان طاعة لله لاقترانه بنية الامتثال له تعالى.

فالمعول عليه في العبادة والشرك هو نية العبادة بالأعمال والأقـــوال إن كانت لله فعبادة، وإن كانت لغيره فشرك، ولذا لم يكن الطلب من الأنبيـــاء والأولياء شركا لخلوه من نية العبادة لهم ولعدم اتخاذهم أرباباً، أو اعتقاد أن لهم شيئاً من خصائص الربوبية.

الفصل الرابع
فساد المقارنة بين عبادة المشركين وتوسّلات الموحّدين

قال تعالى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1] وذلك حكاية عما علل به المشركون عبادتهم لغير الله بأنه التقرب بذلك إلى الله.

وقاس البعض توسلات الموحدين على عبادة غير الله بجامع أن دافعهم من التوسل هو التقرب إلى الله، فاستوى الفريقان في الغاية من وراء ما يأتونه من أعمال وأقوال.

ولا سواء بين الفريقين، ولا يلتبس الفرق بين قول المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وبين توسلات المسلمين بالأنبياء والصالحين.

فالمشركون: يوجهون العمل والقول والطلب من دعاء ونذر وذبح وغير ذلك بنية العبادة لمن اتخذوهم أرباباً.

وقد وضحنا فيما سبق أن الأعمال والأقوال لا تكون عبادة إلا إذا قارنها اعتقاد الربوبية، أو اعتقاد خصيصة من خصائصها في معبوداتهم، وهم إن لم يعتقدوا لأربابهم خلقاً ولا رزقاً ولا تدبير للأمور العظام فإنهم يعتقدون فيهم بعض خصائص الربوبية بإثبات المشيئة النافذة لهم في أمور أهل الأرض بالتصرف فيهم استقلالاً «نفعاً وضراً ونصراً وإعطاءً ومنعاً وشراكةً في الملك

---

(١) الآية ٣، من سورة الزمر.

والربوبية ونفوذ شفاعتهم عليه تعالى بحكم شراكتهم في الربوبية كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾[1].

ففي الآية دلالة على أن دعاء المشركين كان مصحوباً باعتقاد المشركين لآلهتهم صفات الربوبية من ضر ونفع.

أما توسلات الموحدين « استغاثة، أو طلباً من الوسيلة أو نداء لقضاء المطالب، أو جعل الأنبياء والصالحين واسطة بينهم وبين الله في حوائجهم »:

فإنهم لم يوجهوا ذلك إلى الوسيلة بنية العبادة له، ولا باعتقاد أنهم أرباب، ولا باعتقاد أن لأحد مع الله فعلاً، أو تركا؛ بل مجرد أسباب للطلب منه تعالى بواسطتهم دعاء وشفاعة وتوسلا إليه بأنبيائه وبالصالحين، ويخصون الله بالعبادة دون غيره ويعتقدون أنه المالك للضر والنفع ولكل خصائص الربوبية.

ومن حكم بشرك المتوسل أسوة بعابد غير الله بجامع أن الدافع لهما هو التقرب بذلك إلى الله، فقد تجاهل أن تعليل المشركين لعبادة غير الله بأنه تقرب إلى الله وهو طريق فاسد وجهل، متى يقع العمل أو القول عبادة؟

ومتى لا يكون عبادة كما شرحناه من قبل؟

وقد جهل أيضاً الاشتراك في الغرض لا يستوجب الاشتراك في الحكم فالأكل مثلا غايته سد الرمق ولكنه لا يستوي في الحكم حلال وحرام، والوطء مثلا غايته قضاء الشهوة ولكنه لا يستوي في الحكم نكاح وزنا، واكتساب المال مثلا غايته سد الحاجة ولكنه لا يستوي في الحكم بيع وغصب.

والعابد مثلا غايته التقرب إلى الله ولكنه لا يستوي في الحكم متبع

---

(١) الآية ٥٦، من سورة الإسراء.

ومبتدع، وهكذا سائر التصرفات جعلتها الشريعة مقيده فلم تسمح بجعل الشخص يسير مع أغراضه و لم يبح له كل طريق يوصل إلى غرضه وغايته.

وجاءت الشريعة فاصلة بين حدود الإيمان والإشراك، مبينة ما يجب إتباعه من آداب الألسن والجوارح والقلوب، موضحة لما لا ينبغي للمسلم أن يتفوه به، أو يحوم حوله، وقد جعل الشارع لإرادة نفع الجاه التوسل، وحرم طريق العبادة لغيره، فلا يستوى من قصد التقرب إلى الله بعبادة غيره تعالى، ومن قصد التقرب إليه تعالى بالأسباب المحببة إليه.

والخلاصة أنه لا يصح قياس التوسل على العبادة، ولا قياس المتوسل على عابد الوثن بجامع أن الدافع بينهما واحد وهو التقرب إلى الله، إذ لا يستوى مالا عبادة فيه لغيره تعالى مع ما فيه عبادة غير الله « ولو كان غرض الفريقين واحدا وهو التقرب إلى الله»؛ لأن الاشتراك في الغرض لا يستوجب الاشتراك في الحكم كما بيناه.

وقال تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [1] وذلك حكاية عن اعتقاد المشركين بأن أربابهم شفعاء عند الله لهم ولذلك عبدوهم.

وقاس البعض التوسل بالأنبياء والصالحين على هؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله بجامع أن غاية الفريقين واحدة وهي شفاعتهم لهم عند الله.

ولا يلتبس الفرق بين قول المشركين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾.

وبين قول الموحد رسول الله ﷺ شفيعنا.

إذ المشركون قد اعتقدوا أن لأربابهم شراكة في الملك وبمقتضى شراكتهم فيه فإن لهم الشفاعة المحتمة القبول وإن لم يرض بها تعالى.

---

(١) الآية ١٨، من سورة يونس.

وقد كذب الله اعتقادهم هذه الشراكة بقوله: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[1].

كما نفى أن يكون لآلهتهم حق الشفاعة فقال: ﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا ﴾[2]، وقال: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾[3]، وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[4].

أما الموحدون فالاعتقاد الراسخ فيهم أنه لا يجب على الله شيء؛ بل كل ما يعطيه هو بفضله ورحمته لكرامة عبده عنده ونصت آيات على أن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[5].

ونصت آيات على أنه يملكها لمن شاء من عباده الصالحين فقال تعالى: ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ

---

(١) الآية ٦٦، من سورة يونس.

(٢) الآية ٩٤، من سورة الأنعام.

(٣) الآية ٦٤، من سورة القصص.

(٤) الآية ١٨، من سورة يونس.

(٥) الآية ٤٤، من سورة الزمر.

(٦) الآية ٨٧، من سورة مريم.

يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

ونصت آيات على أنه لا يقدم عليها إلا من جعله الله شفيعا فقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾[2] .

ونصت آيات على أنه إذا شفع الشفعاء فليس من الواجب عليه تعالى قبولها بل ذلك موكول إلى رضاه تعالى لأن نفوذ المشيئة لله وحده دون سواه فقال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[3]، والمراد إلا برضاه تعالى أن يجعله من الشفعاء وأن يقبل شفاعته، وليس المراد أن إباحتها للشافع لا تكون إلا بعد الاستئذان ما دام الله قد ملكه الشفاعة وجعله من الشفعاء وإنما يتوقف نفعها على رضاه تعالى أن يقبلها إذ لا يقع في ملكه إلا ما شاء .

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾.

---

(١) الآية ٨٦، من سورة الزخرف.

(٢) الآية ١٠٩، من سورة طه.

(٣) الآية ٢٥٥، من سورة البقرة.

(٤) الآية ٨٦، من سورة الزخرف« من شهد بالحق » أي يشهد المتوسل به (الولي) بالوحدانية والألوهية والربوبية لله وهو في أعلى درجات الإيمان وهو الإحسان فأجرى الله على أيديهم الكرامات كما في الحديث القدسي « لا يزال عبدي يتقرب .... » والحديث الآخر « من عادى لي ولياً فقد أذنته بالحرب » ولظهور الكرامات على أيدي الصالحين اتجه الناس للتوسل بالصالحين لصلاحهم وإلا لما لا يتوجهون لقبور مشاهير الدنيا.

فالتوجه لهم لمكانتهم عند الله فالفاعل والمقصود الحقيقي هو الله ولا فرق بين موت الولي أو حياته لأن مجريها حي لا يموت.

والخلاصة أنه لا سواء بين استشفاع المشركين بآلهتهم واستشفاع الموحدين بمن جعلوه وسيلتهم إلى الله.

فالمشركون يعتقدون أن آلهتهم شفعاء لهم رجما منهم بالغيب وأن شفاعتهم محتمة القبول لديه تعالى بمقتضى شراكتهم له في الربوبية.

أما الموحدون فيعتقدون أن الشفاعة كلها لله، وأنه يملكها لمن شاء من عباده الصالحين، وأنه لا يقدم عليها إلا من جعله الله من الشفعاء، وأنه إذا شفع فليس قبولها واجبا عليه تعالى؛ بل ذلك موكول إلى إذنه تعالى أي رضاه تعالى في قبولها، وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أنه الشافع المشفع فطلبها منه لا غضاضه فيه.

جدول

يبين الفرق بين توسل الموحدين ودعاء المشركين

م	التوسل	دعاء وعبادة المشركين
١	الوسيلة: النبي أو الولي غير معبود ولا يعتقد فيه استقلال بالنفع أو الضر. ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ... ﴾ الآية والمتوسل مؤمن بذلك.	الأصنام معبودة يعتقد فيها عابدوها الاستقلال بالنفع أو الضر أراد الله أم لم يرد تعالى الله عن ذلك. ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾.
٢	التوجه فيه والدعاء والطلب من الله وحده والنبي أو الولي (الوسيلة) متوجه إلى الله وطالب منه مثل المتوسل تماما. (إني أتوجه بك إلى ربي...) (اللهم شفعه في ...)	التوجه والطلب مقرونا بالعبادة هو من الأصنام وحدها. ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ الآية.
٣	الأنبياء والأولياء والصالحون لهم حق وجاه وقدر عند الله سبحانه بفضله ولا إلزام عليه. ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ الآية ﴿ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ الآية	الأصنام والأوثان ليس لها قدر ولا جاه ولا حق عند الله ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾.

م	التوسل	دعاء وعبادة المشركين
	«بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي » .	
٤	أرواح الأنبياء والأولياء في الدنيا وفي البرزخ حية عالمة تقوم بعبادة الله ودعاؤه. « مررت بموسى قائما يصلي في قبره».	الأصنام والأحجار جمادات لا تحس ولا تدعو ولا تطلب ولا تملك شيئا. - ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ الآيتان.
٥	أرواح الأنبياء والأولياء تعلم وتحس بالمتوسل بها إما بنفسها أو عن طريق الملائكة. « تعرض على أعمالكم ... » « إن إعمالكم تعرض على أقاربكم ... »	الأصنام والأحجار لا تعرف عبّادها ولا تحس بهم أو بغيرهم. - الآيتان السابقتان.
٦	أرواح الأنبياء والأولياء مأذون لها بالشفاعة والطلب من الله، في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة	الأصنام غير مأذون لها. - ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ

م	التوسل	دعاء وعبادة المشركين
	﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ الآية. « واشفع تُشفّع ... » الحديث	﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ الآية.
٧	التوسل صحيح ومقبول إن شاء الله حتى بدون أن يحس الوسيلة- النبي أو الولي- بالمتوسل وبدون أن يدعو له كالتوسل بحقه ﷺ أو جاهه أو مترلته وقدره عرف النبي أو الولي بذلك أم لم يعرف	العكس تماما (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال)
٨	التوسل بالأنبياء والصالحين عند الشدائد وفي كل وقت مندوب إليه أرشدنا المشرع إليه وعلمنا كيفيته. ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ...﴾ الآية. « وإن كان لك حاجة مثل ذلك فافعل » الحديث	لا

الفصل الخامس
التبرك بآثاره ﷺ هو من باب اتخاذه وسيلة

في صحاح السير أن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان كانوا متوسّلين متبرّكين بماء وضوئه ومن لم يصبه الماء أخذ من بلل صاحبه ودلك به ما استطاع من بدنه.

وكانوا يتبركون بريقه وشعره وعرقه.

وكان عند خالد بن الوليد رضي الله عنه شعرات من شعره ﷺ وضعهن في قلنسوة له إذا تعسر عليه النصر لبسها فلا يلبث أن يسرع إليه الفرج[1].

وكانوا يستشفون بعد وفاته بغسالة ما ادخروه من ملابسه فيأتيهم الشفاء.

وانظر في البخاري قول عروة بن مسعود الثقفي لقريش لما بعثوه سفيرا إلى رسول الله ﷺ في الحديبية: « أنه لا يتنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم، ولا توضأ وضوءاً إلا اقتتلوا على وضوئه يتبركون به[2].

---

(١) مجمع الزوائد (٣٤٩/٩) يقول الحافظ الهيثمي : « رواه الطبراني وأبو يعلى بنحوه ورجالهما رجال الصحيح، وجعفر -راوي الحديث- سمع من جماعة من الصحابة فلا أدري سمع من خالد أم لا » . وذكره ابن حجر في المطالب العالية ح٤ ص٩٠ وفيه يقول خالد (فما وجهت في جهة إلا فتح لي).

(٢) صحيح البخاري- كتاب الشروط- باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

وفي البخاري ازدحامهم على الحلاق عند حلق رأسه الشريف وأقتسام شعره، وفي صحيح مسلم أنه لما حلق ﷺ أعطى أبا طلحة شعره فقال: « اقسمه بين الناس »[1].

وفي ابن ماجة حديث كبشه الأنصارية أن النبي ﷺ دخل عليها وشرب من قربة عندها فقطعت فم القربة تبتغي بركة موضع فمه[2].

في الشفاء للقاضي عياض أن ابن عمر كان يضع يده على مقعد رسول الله ﷺ من المنبر ثم يضعها على وجهه[3].

وفي الصحيحين أن أسماء بنت أبي بكر أخرجت لهم جبة لرسول الله ﷺ كان يلبسها وقالت: نحن نغسلها للمرضى نستشفى بها[4].

وفي الجمع بين الصحيحين للحميدي عن عبد الله بن موهب قال أرسلني أهلي إلى أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ بقدح من ماء فجاءت بجلجل من فضة فيه شعر من شعر النبي ﷺ فكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء بعث بإناء إليها فخضخضت له فشرب منه[5].

---

(١) كتاب الحج- باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمى ثم ينحر ثم يحلق ح ٣٢٦ (١٣٠٥) ط دار الخير ح٣/٤٢٥.

(٢) سن ابن ماجة كتاب الأشربة باب الشرب قائما (ح٣٤٢٣) وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه بن سعد في الطبقات الكبرى. انظر (مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا) للحافظ السيوطي ص٢٠٩ ط. دار الجنان ط. الأولى ١٤٠٨هـ.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ٣/١٦٤١ كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة علىالرجال والنساء.

(٥) صحيح البخاري: كتاب اللباس، باب ما يذكر في الشيب.

وفي صحيح مسلم وشمائل الترمذي أنه ﷺ كان إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يأتونه بإناء إلا غمس يده الشريفة فيه[1].

وشرع الله لنا في الطواف استلام الحجر الأسود وتقبيله ومن لم يتمكن من مسّه أشار إليه ومسح على وجهه تبرّكا.

وفي القرآن أن يعقوب عليه السلام ارتد بصيراً حين ألقي إليه قميص يوسف عليه السلام[2].

وفي القرآن أيضاً قصة السامري لما أخذ من التراب الذي مرت عليه الدابة التي كان عليها جبريل عليه السلام وهو سائر بها أمام موسى وقومه ووضعها في العجل المصنوع من الذهب فصار له خوار وقال له موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾[3].

وروى البخاري في التاريخ وأحمد في مسنده أن النبي ﷺ مسح بيده على رأس حنظلة بن خذيم وقال: بورك فيك فكان يؤتى له بالشاة المتورم ضرعها والبعير والإنسان به الورم فيبصق في يده ويمسح بصلعته ويقول: بسم الله على أثر رسول الله ﷺ فيمسح موضع الورم[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨١٢/٤ كتاب الفضائل باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به.

(٢) ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ آية ٩٦ من سورة يوسف.

(٣) الآية ٩٦ من سورة طه.

(٤) المسند ٨٣/٥ ط العلمية (ح ٢٠٦٩٢) وإسناده حسن. وانظر رعاك الله لمن يحرم المسلمين اليوم من آثار رسول الله ﷺ.

وهذا باب واسع مرجعه كله إلى التوجه إلى الله وطلب البركة بكل ما يتعلق به ﷺ وبعباد الله الصالحين و لم ينكره عليهم ﷺ في حياته ولا أنكره الصحابة ولا التابعون بعد وفاته بل فعلوه بأنفسهم.

وإذا صح التوجه إلى الله بما له تعلق برسول الله ﷺ وهي جمادات لا أرواح فيها، ولا يتصور منها دعاء ولا شفاء، وصح استنزال رحمة الله بها لتعلقها من قرب أو بعد بذاته الشريفة وذوات عباد الله الصالحين، حيث تجلت أنوار الحق عليها فانفعلت[1] وتأثرت وصح التبرك بها أفلا يصح بالأولى التوسل بذاته الشريفة وذوات سائر أحباب الله عز وجل.

ولا بدع أن يكون التوسل به ﷺ ونداؤه من أعظم مفاتيح رحمه الله، وأقوى الأسباب لتنزل فضل الله على من تعاطاه مع الإدراك التام بأن الفاعل الحقيقي والمعطي والمانع والقادر والمقدر هو الله.

---

(١) ونذكر بالحديث القدسي (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ...) إلى آخر الحديث فمداومة النبي أو الولي على الإكثار من الطاعات الباطنة والظاهرة- القلبية والجسدية- تجعل متحققا بالعبودية التامة أي أنه أقرب ما يكون من ربه فتفيض على ذاته الشريفة أنوار الحق سبحانه ورحمته حتى تنفعل ذاته وتتأثر روحا وجسداً ويصح التبر به وكذا التوجه إلى الله به.

الفصل السادس
الكلام على حديث توسل الأعمى رواية ودراية

عن عثمان بن حنيف قال في رواية الترمذي:

« إن ضريرا أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني قال: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت، قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي اللهم فشفعه في » .

وفي رواية ابن ماجه: أنه أمره بصلاة ركعتين بعد الوضوء وقال في آخره: « يا محمد إني قد توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه ... » الحديث.

قال في تحفة الأحوذي وزاد النسائي في آخره: « فرجع وقد كشف الله عن بصره.

وفي رواية الطبراني قال ابن حنيف: فو الله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأن لم يكن به ضر قط.

ورواه البيهقي من طريقين نحوه، وجاء في بعض طرق الحديث: « وإن كان لك حاجة فمثل ذلك » أي فافعل مثل ذلك من الوضوء والصلاة والدعاء المشتمل على التوسل به وندائه ﷺ .

هذا وقد أخرج الحديث الأئمة الحفاظ ابن خزيمة في صحيحه، والترمذي

في جامعه، وابن ماجة في سننه، والحاكم في مستدركه، والنسائي في كتابه عمل اليوم والليلة، والطبراني في الكبير، والبيهقي في دلائل النبوة وغيرهم وصححه جماعة من الحفاظ منهم الترمذي وابن حبان والحاكم والطبراني وأبو نعيم والبيهقي والمنذري وآخرون وقد أقر ابن تيمية بصحة الحديث في عدة من كتبه.

وروى الطبراني في معجميه « أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان ﷺ في حاجة له وكان عثمان ﷺ لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته فلقى الرجل عثمان بن حنيف فشكى ذلك إليه فقال له عثمان ابن حنيف: إئت الميضئة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: « اللهم إني أسألك.. الخ الدعاء .. واذكر حاجتك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ثم أتى باب عثمان فجاء البواب حتى أخذ بيده فادخله على عثمان بن عفان ﷺ فأجلسه معه على الطنفسة وقضى حاجته » .

قال الطبراني: والحديث صحيح، ورواه البيهقي في دلائل النبوة وصححه.

وحاول المانعون للتوسل التشكيك في صحة حديث توسل الأعمى تارة، وفي تأويل معناه تارة أخرى، وكل ذلك بأسلوب واضح فيه الاضطراب والارتباك، فالسهسواني وهو أحد المانعين للتوسل حاول في كتابه « صيانة الإنسان من وسوسة دحلان » وهو الموسوس أن يشكك في صحة الحديث فقال: « في سند هذا الحديث أبو جعفر، فإن كان هو عيسى بن عيسى ماهان أبو جعفر الرازي التميمي فالأكثرون على ضعفه، وإن كان هو أبو جعفر المديني فهو مجهول، وإن كان رجلاً آخر فلابد من تعيينه » اهـ.

قلت: جزم ابن تيمية في كتابه التوسل والوسيلة- « رغم أنه أحد

المانعين للتوسل » بأن الرواي هو أبو جعفر الخطمي الثقة، وقال: ذكر الترمذي أنه غير الخطمى، وأما سائر العلماء فقالوا: هو أبو جعفر الخطمي وهو الصواب» اهـ.

على أن قول ابن تيمية: أن الترمذي ذكر أنه غير الخطمي فيه نظر حيث جاء في بعض نسخ الترمذي قوله: هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو الخطمى.

وهذا من تصرفات الناسخين إذ ليس من عادة الترمذي أن يقول هو غير فلان، ثم يتركه من غير بيان. ويؤيّد أنّه الخطمى سند الحديث في الترمذي وغيره عثمان بن عمر عن شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف».

وأبو جعفر الراوي عن عمارة الذي هو من شيوخ شعبة هو أبو جعفر عمير بن زيد الخطمي المدني ثم البصري ولا يمكن أن يكون أبو جعفر الرازي المتوفى سنة ١٦٠ فإنه وإن كان من شيوخ شعبة أيضاً إلا أنه لم يدرك عمارة المتوفى سنة ١٠٥ لأن رحلته إلى الحجاز كانت بعد وفاة عمارة بنحو تسع سنين.

على أن طرقا أخرى للحديث عند الطبراني كما ساقه السبكي في شفاء السقام تنصّ في صلب السند على أن أبا جعفر الراوي للحديث عن عمارة هو الخطمى الثقة باتفاق ورجال سند الترمذي كلهم ثقات، وإنما أطلق عليه الترمذي « أنه حسن صحيح غريب » بموجب اصطلاحه. فلانفراد عثمان بن عمر عن شعبة وانفراد أبي جعفر عن عمارة سماه غريبا وهما ثقتان باتفاق.

وكم من حديث صحيح ينفرد به أحد الرواة كحديث « إنما الأعمال بالنيات » ، ولتعدد طرق الحديث بعد أبي جعفر وعثمان بن عمر سمّاه حسنا. ولتكامل أوصاف الصحة في رواته سمّاه صحيحا. وبذلك قال عنه « حسن صحيح غريب » .

هذا ما يتعلق برواية الحديث.

وأما الكلام عليه دراية فقد حاول البعض التشكيك في دلالة الحديث وتأويل معناه على ما ذهبوا إليه في منع التوسل.

ومحصل ما ذكروه ملخصا من رسالة التوسل والوسيلة لابن تيمية ومن سلسلة الأحاديث الضعيفة الموضوعة للألباني ومن التوصل إلى حقيقة التوسل لنسيب الرفاعي: « إن هذا التوسل كان توسلا بدعاء النبي ﷺ لا بذاته، وقول الأعمى: إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك أي بدعاء نبيك، والسر في الإجابة هو دعاء النبي ﷺ له وليس توسل الأعمى، ويدل على دعاء النبي ﷺ له قوله ﷺ للأعمى: « إن شئت دعوت وإن شئت صبرت »، ومعنى قول الأعمى: «اللهم شفعه في وشفعني فيه » أي إقبل دعاءه في واقبل دعائي في قبول دعائه. قالوا: « وعثمان بن حنيف راوي حديث الأعمى على فرض ثبوت أنه في عهد عثمان أمر شخصا باستعمال التوسل الوارد في الحديث فعمله مخالف لتوسل عمر بالعباس بعد وفاة الرسول ﷺ » انتهى كلامهم.

قلت: هكذا بدؤوا يؤولون الحديث تأويلاً بعيدا عن ظاهره لئلا يكون ناقضا لمذهبهم، فلأنهم لا يجيزون التوسل بالذات جعلوا قول الأعمى: إنّي أسألك وأتوجه إليك بنبيك على حذف مضاف أي بدعاء نبيك. وظاهر الحديث يدل على أن توسل الأعمى الذي علمه له رسول الله ﷺ كان بشخص الرسول وادعاء أن هناك مضافا محذوفا هو مجرد ادعاء بدون أدنى حجة.

أما كون الاستجابة قد وقعت بدعاء الرسول وهو غير مذكور في الرواية، أو بدعاء الضرير فلا شأن لنا في ذلك؛ بل الحجة هي نص الدعاء المأثور الذي فيه التوسل والنداء، وما جاء في رواية النسائي « فرجع وقد كشف الله عن بصره »، وفي رواية الطبراني « قال ابن حنيف: فوالله ما

تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأن لم يكن به ضـــر » يدل على أن الضرير قد قام بالدعاء ليس بحضرته ﷺ بل في مغيبه وإرشـــاد راوي الحديث عثمان بن حنيف الصحابي للرجل الذي أراد مقابلة الخليفـــة عثمان بن عفان في حاجة بقراءة الدعاء أن امره ﷺ للضرير بقراءة الـــدعاء سار حتى بعد وفاته، ويؤيده ما جاء في رواية « وإن كان لك حاجة فمثـــل ذلك » فإنه صادق بما يكون في حضوره ومغيبه وبعد وفاته.

وتوسل عمر بالعباس رضي الله عنهما في الاستسقاء ليس ســـببه عـــدم جواز التوسل بالأموات، وإنّما سببه أن الاستسقاء بخروج الإمام إلى المصلى والصلاة بهم والخطبة لا يكون عادة إلا بالأحياء بهذه الحياة الدنيوية؛ لتعـــذر أن يخرج الميت بالناس، وأيضاً للإفادة بأن التوسل بعد رســـول الله ومـــن الصالحين خصوصا وقربى رسول الله جائز، أما الاستسقاء بغير خروج فقـــد توسل الناس به ﷺ حيا وميتا كما وضحناه من قبل.

والخلاصة أن الحديث صريح في أمره ﷺ لذوي الحاجات بالتوسل بذاته وندائه، والعلماء مجمعون على أن أمره ﷺ للواحد من أمته متوجه لكل الأمة في جميع الأزمنة في حضوره ومغيبه في حياته وبعد مماته ما لم يقم دليل على التخصيص، فكيف إذا قام الدليل على عدمه حيث فهم الصحابي عثمان ابن حنيف راوي الحديث أن الأمر سارٍ حتى بعد وفاته ﷺ .

ومن أمعن النظر في حديث الضرير يجد أن الرسول ﷺ لم يقتصر على أن يقول قل: "اللهم"؛ بل أمره أن يقول بعدها: "وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة" ولم يكتف بالتوجه به ﷺ إلى الله حتى علمه أن يتوجه إليـــه ﷺ في الدعاء ويناديه مخاطبا حضرته الشريفة قائلا: "يا محمد إني أتوجـــه بـــك إلى ربك في قضاء حاجتي" مبالغة في كمال الاستشفاع به ﷺ والاستمداد منه.

وفي ذلك أوضح البيان للأمة من الإقبال على رسول الله ﷺ وتذكره والاستنجاد به حين التوجه إلى الله بالدعاء.

ومن حسنت في ذلك عقيدته وقويت في الله رغبته سارعت إليه الرحمة، ورأى آثار الإجابة وناب حضور قلبه مع رسول الله ﷺ عن بدنه بين يديه.

وانظر كيف شرع الله لعباده عقب تحياتهم لله في كل صلاة أن يتوجهوا إلى نبيهم ﷺ فيسلموا عليه سلام الناظر المشاهد له بصيغة خطاب الحاضر بين يديه فيقولوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وأن يجمعوا ذكر الله وذكر رسوله في الشهادتين، ثم يختموا صلاتهم بالصلاة والبركة عليه ﷺ وعلى آله ليكون ذلك ختام صلاتهم وفاتحة أبواب قبول دعائهم.

وبالجملة فإنه ﷺ علم الضرير هذه الدعوة وفيها التوسل والنداء، وأوصى بفعلها عند الحاجات ليتركها ذخيرة لأمته بعده باقية على مدى الدهور فيدع معهم مفتاحا للرحمة الخاصة لا يخيب من استفتح به فضلا من الله وإحسانا.

ولم ينقل عن أحد من السلف قبل ابن تيمية أن التوسل شرك؛ بل ولا قال أحد بالكراهة فضلاً عن الحرمة؛ بل ذكروا أن التوسل به ﷺ من سنن الدعاء كالصلاة عليه أوله وفي أثنائه وآخره، ومعاذ الله أن يعلم رسول الله ﷺ الأمة ما هو شرك، أو ذريعة للشرك؛ بل أن ما علمهم ﷺ من التوسل به والاستغاثة به والاستشفاع والنداء له في الحضور والغيبة وبعد الوفاة إنما هو موجب لكمال الإيمان، وأن كل من كان أقوم بالنفوس كان أقرب عند الله زلفى وأحظى بعنايته تعالى به.

الفصل السابع
الكلام على حديث عرض الأعمال رواية

أخرج البزار في مسنده عن ابن مسعود ﷺ قال قال رسول الله ﷺ :

«حياتي خير لكم: تحدثون ويحدث لكم. ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم » .

وزعم البعض أنه ليس لهذا الحديث وجود في جميع كتب السنة وأن من رواه وقفه على بكر بن عبد الله المزني وأن أحدا من وراة السنة لم يذكر الصحابي الذي روي عنه لا في صحيح الكتب ولا ضعيفها.

قلت:

تشبعت نفوس هؤلاء بأن التوسل والاستغاثة برسول الله ﷺ بعد وفاته شرك؛ لأنه ﷺ وسائر الأموات لا يقدرون بعد الوفاة على دعاء ولا استغفار، فأقدم هؤلاء على إنكار كل ما يفند مزاعمهم وجازفوا في إنكار ما هو ثابت من حديث رسول الله ﷺ، وقد وضحنا في الفصل الثاني من هذه الرسالة أن الأموات سامعون قادرون على الدعاء والشفاعة والاستغفار للأحياء، وأن هذا المعنى موجود في عامة موتى المسلمين فضلا عن خاصتهم فضلا عن سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أما حديث عرض الأعمال عليه ﷺ فقد تعرض لذكره من كتب السنة مسند البزار، ومسند الحارث بن أبي أسامة، وبغية الباحث بزوائد مسند

الحارث، ومجمع الزوائد كلاهما للحافظ الهيثمي، والجامع الصغير والكبير والخصائص الكبرى، الثلاثة للحافظ السيوطي، وشرح البخاري للقسطلاني، وكنز العمال للمتقى الهندي، وطرح التثريب والمغنى، كلاهما للحافظ العراقي، والخفاجي والقاري في شرحيهما على الشفاء، والزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية، وطبقات بن سعد، وكامل بن عدي وتاريخ ابن النجار.

وحديث الباب في مسند البزار مروي عن الصحابي ابن مسعود مرفوعاً.

وقال العراقي في طرح التثريب: إسناده جيد، وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد، والسيوطي في الخصائص الكبرى، والقسطلاني في شرحه على البخاري والخفاجي والقارى في شرحيهما على الشفاء، وقال الزرقاني في شرحه على المواهب: إسناده جيد.

وكما روي الحديث عن الصحابي ابن مسعود مرفوعا كذلك روي أيضاً عن الصحابي أنس بن مالك في مسند ابن أبي أسامة، وكامل بن عدي من طريق خراش عنه قال العراقي في المغنى:

وخراش وإن ضعف فللحديث عن أنس طريق آخر عن نافع أبي هرمز السجستاني.

وقد روى الحديث عدا ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما عن جمع من الصحابة وكذلك وري الحديث مرسلا في مسند الحارث بن أبي أسامة عن أبي بكر بن عبد الله المزني التابعي وهو وإن ضعف لضعف الحسن بن قتيبة وشيخه فيه فقد خرجه أيضاً إسماعيل القاضي المالكي من طريقين:

الأول عن القطان عن أبي بكر بن عبد الله المزني.

وهذا الإسناد صحيح صححه الحافظ بن عبد الهادي.

والثاني من طريق صحيح أيضاً عن أبي الفضل عن أبي بكر المزني.

وعدا رواية أبي بكر للحديث مرسلا فكذلك هو مروي عن جماعة من التابعين.

وكذلك للحديث شواهد فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن أنس ﷺ مرفوعا:

« إن أعمال أمتي تعرض علي كل يوم جمعه » .

وروى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: « إنكم تعرضون علي بأسمائكم » أخرجه عبد الرزاق.

وبالجملة فحديث الباب صححه جماعة من الحفاظ كما سبق.

فالحديث من طريق ابن مسعود عند البزار إسناده جيد كما قال العراقي والزرقاني وصحيح عند السيوطي والهيثمي وغيرهما، وإذا أضفنا الطريقين المرسلين الصحيحين إلى بكر بن عبد الله المزني فيكون الحديث صحيحا بمجموع طرقه- بل فوق الصحيح- بإجماع المحدثين.

وروى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب أنه قال:

«ليس من يوم إلا وتعرض فيه على النبي ﷺ عمل أمته غدوة وعشيا» .

فلذلك يشهد عليهم قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [1]، وذلك يقتضى أن تعرض أعمالهم عليه ﷺ ليشهد عن رأي وعلم.

وبما ذكرناه ذهب ضعف الباب مرفوعا ومرسلا ومعتضدا ومؤيدا بالقرآن في عرض الأعمال عليه ﷺ كما استنبطه سعيد بن المسيب أحد الفقهاء السبعة ومن سادة التابعين.

---

(١) الآية ٤١ من سورة النساء.

الفصل الثامن
زيارة القبر النبوي المكرم والتوسل أثناءها
بين جمهور الأمة (المذاهب الأربعة)، ومخالفيهم

أدلة استحباب زيارة قبر رسول الله ﷺ .

أولاً: القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

هذه الآية تشمل حالتي الحياة وبعد الانتقال ، لأن الفعل في سياق الشرط يفيد العموم وأعلى صيغ العموم ما وقع في سياق الشرط، ولا يوجد أي دليل على تخصيص الآية بحالة الحياة.

والمجئ إليه ﷺ والوقوف بين يديه والسلام عليه فيه تعظيم له وتوقير وإيناس له وقيام بحقه علينا وهو ﷺ كما أسلفنا حي في قبره يدرك ويعرف ويسمع زائره وكذا يرّد عليه سلامه بنفسه.

كيف لا والجميع متفقون على:

١- الأنبياء أحياء في قبورهم وهي حياة أرفع وأتم من حياة الشهداء بغير شك.

٢- للأنبياء إحساس وإدراك تام لزوارهم بأنفسهم بدون واسطة وأيضاً

لغيرهم بواسطة الملائكة (من صلى على عند قبري سمعته ومن صلّى على نائيا أبلغته) رواه أبو الشيخ الأصبهاني وإسناده جيد واعترف ابن تيمية بصحة معناه انظر الرد على الأخنائي ص٢١٠.

٣- الأنبياء يعبدون ربهم في قبورهم يصلون ويدعون الله ويحجون ... عبادة تشريف لا عبادة تكليف.

٤- صلاتنا وسلامنا على رسول الله ﷺ معروضة عليه وكذلك جميع أعمالنا معروضة عليه ﷺ فيحمد الله على خيرها وما كان غير ذلك استغفر لنا كما وردت به السنة، فهو ﷺ في قبره يتتبع أخبار أمته ويدعو لهم؛ بل إن ذلك ثابت في حق الأقارب والأخلاء بنص الأحاديث السابق ذكرها، فكيف بمن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ﷺ .

٥- لزائر رسول الله ﷺ عدة فضائل منها:

أ) أن رسول الله ﷺ يسمع سلامه وتحيته وكلامه بنفسه.

ب) أن رسول الله ﷺ يرد بنفسه على سلامه.

ج) أن في الزيارة تعظيم للمزور ﷺ وتشريف للزائر بحيث يكون حريّا أن يقبل الله دعاءه ويجيب طلبه.

د) أن يدعو له رسول الله ﷺ فالزائر ضيف على أكرم الخلق ﷺ .

٦- أن التوسل برسول الله ﷺ مما تشمله الآية الكريمة ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ بل هو من أعظم الوسائل ﷺ .

فأي فضيلة أكبر من هذه ؟! بل كيف يتأخر المسلم عن الحضور والمثول بين يديه؟!

وقد علق الله سبحانه هذه الجائزة الكبرى (لوجدوا الله توابا رحيما) على المجئ إليه أولاً ثم الاستغفار ثانيا.

ثانياً: السنة المطهرة:

١- عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « من زار قبري وجبت له شفاعتي » رواه الدارقطني والبيهقي في الشعب وغيرهم. حديث حسن (صححه أو حسّنه عدد من الحفاظ: عبد الحق الإشبيلي والسبكي والسيوطي).

٢- عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « من زارني في مماتي كان كمن زارني في حياتي، ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له شهيداً يوم القيامة » . أخرجه العقيلي في الضعفاء وقال عن إسناده: فيه لين وهذا أقل درجات الضعف فدرجته أقرب إلى الحسن.

٣- عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: « من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة » رواه البيهقي في الشعب، وحمزة السهمي في (تاريخ جرجان)، وابن أبي الدنيا في (القبور)، والسبكي في شفاء السقام، وأخرجه أيضاً اسحق بن راهويه في مسنده من طريق آخر عن أنس، فالحديث حسن لغيره باعتبار مجموع الطريقين.

٤- عن رجل من آل حاطب عن حاطب قال: قال رسول الله ﷺ : «من زارني في المدينة بعد موتى فكأنما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة » أخرجه الدارقطني والبيهقي والبخاري في تاريخه وغيرهم وضعف هذا الإسناد قريب محتمل لجهالة التابعي.

٥- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائياً أبلغته » أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في (الثواب).

قال الحافظ السخاوي في القول البديع (ص١٥٤): « وسنده جيد كما أفاده شيخنا (أي الحافظ ابن حجر العسقلاني) » أ.هـ أي أن إسناده فوق درجة الحسن.

٦- عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « ما من أحد يسلم علي إلا ردّ الله على روحي حتى أرد عليه » رواه أحمد وأبو داود والبيهقي وغيرهم حديث حسن الإسناد.

فالحاصل مما ذكرناه من الأحاديث الستة وبعضها جيد الإسناد أو حسن الإسناد بمفرده (والجيد ما هو فوق الحسن وبشك هل بلغ درجة الصحيح أم لا).

أما بمجموعها فهي صحيحة تبنى عليها أحكام استحباب الزيارة بل في رأي كثير من الفقهاء تقترب من الوجوب هذا بتطبيق القواعد العلمية لعلوم الحديث.

قال ابن حجر في (تلخيص الحبير) بعد أن ذكر أهم أحاديث الزيارة وملخص ما قيل في أسانيدها، وفيها بعض الأحاديث السابق ذكرها:

« (فائدة) طرق هذا الحديث كلها ضعيفة لكن صححه من حديث ابن عمر أبو علي بن السكن في إيراده إياه في أثناء الصحاح له، وعبد الحق في الأحكام في سكوته عنه، والشيخ تقي الدين السبكي من المتأخرين باعتبار مجموع الطرق، وأصح ما ورد في ذلك ما رواه أحمد وأبو داود من طريق أبي صخر حميد بن زياد عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي هريرة مرفوعا: « ما من أحد يسلم عليّ الا رد الله على روحي حتى أرد عليه السلام » وبهذا الحديث صدر البيهقي الباب » أ.هـ جـ٢ ص٢٦٧ ط دار المعرفة بعناية السيد عبد الله هاشم اليماني المدني.

قلت: وقد سبقه الذهبي أيضاً إلى هذا الحكم.

ثالثاً: الإجماع:

وقد حكى الإجماع في هذه المسألة عدد من الأئمة منهم:

١- القاضي عياض المالكي. قال في (الشفاء ٢/٧٤):

« زيارة قبره ﷺ سنة من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها»أ.هـ.

٢- محمد بن علي الشوكاني السلفى. قال في (نيل الأوطار ٥/١١٠):

«واحتج أيضاً من قال بالمشروعية بأنه لم يزل دأب المسلمين القاصدين للحج في جميع الأزمان على تباين الديار واختلاف المذاهب الوصول إلى المدينة المشرفة لقصد زيارته، ويعدون ذلك من أفضل الأعمال فكان إجماعاً»أ.هـ.

٣- العلامة المحقق محمد عبد الحي اللكنوي الحنفى. في (إبراز الغي الواقع في شفاء العي):

« وأما نفس زيارة القبر النبوي فلم يذهب أحد من الأئمة وعلماء الملة إلى عصر ابن تيمية إلى عدم شرعيته، بل اتفقوا على أنها من أفضل العبادات وأرفع الطاعات، واختلفوا في ندبها ووجوبها، فقال كثير منهم بأنها مندوبة، وقال بعض المالكية والظاهرية: إنها واجبة، وقال أكثر الحنفية إنها قريب من الواجب، وقريب الواجب عندهم في حكم الواجب، وأول من خرق الإجماع فيه وأتي بشيء لم يسبق إليه عالم قبله هو: ابن تيمية» أ.هـ.

رابعا: القياس:

أ) جاء في السنة الصحيحة المتفق عليها الأمر بزيارة القبور فقبر نبينا محمد ﷺ منها أولى وأمرى وأحق وأعلى، بل لا نسبة بينه وبين غيره.

ب) ثبت أنه ﷺ زار أهل البقيع وشهداء أحد، فقبره الشريف أولى، لما له من الحق ووجوب التعظيم.

وليست زيارته ﷺ إلا لتعظيمه والتبرك به، ولينا لنا عظيم الرحمة والبركة بصلاتنا وسلامنا عليه ﷺ عند قبره الشريف بحضرة الملائكة الحافين به ﷺ.

زيارة القبر النبوي المكرم والتوسل أثناءها عند جمهور الأمة (المذاهب الأربعة)

أ- التوسل عند الأحناف:

وإليك نموذجين من كلام فقهائهم المعبّر عن رأي المذهب:

الأول: كلام الإمام عبد الله بن محمود بن مودود الحنفي (ت٦٨٣هـ).

في كتابه (الاختيار لتعليل المختار) آخر كتاب الحج:

(فصل في زيارة قبر النبي ﷺ).

ولما جرى الرسم أن الحجاج إذا فرغوا من مناسكهم وقفلوا عن المسجد الحرام قصدوا المدينة زائرين قبر النبي ﷺ، إذ هي من أفضل المندوبات والمستحبات، بل تقرب من الواجبات، فإنه ﷺ حرّض عليها وبالغ في الندب إليها فقال: « من وجد سعة ولم يزرني فقد جفاني »، وقال عليه الصلاة والسلام: « من زار قبري وجبت له شفاعتي ... » إلى أن قال:

« ... ثم ينهض فيتوجه إلى قبره ﷺ، فيقف عند رأسه ﷺ مستقبلاً للقبلة، يدنو منه قدر ثلاثة أذرع أو أربعة، ولا يدنو منه أكثر من ذلك، ولا يضع يده على جدار التربة فهو أهيب وأعظم للحرمة، ويقف كما يقف في الصلاة، ويمثل صورته الكريمة البهية ﷺ كأنه نائم في لحده عالم به يسمع كلامه، قال ﷺ: « من صلى عليّ عند قبري سمعته » .

وفي الخبر: « أنه وكل بقبره ملك يبلغه سلام من سلم عليه من أمّته »، ويقول: السلام عليك يا رسول الله، ... » إلى أن قال:

« ... يا رسول الله نحن وفدك وزوّار قبرك، جئناك من بلاد شاسعة، ونواح بعيدة، قاصدين قضاء حقك، والنظر إلى مآثرك، والتيامن بزيارتك،

والاستشفاع بها إلى ربنا، فإن الخطايا قد قصمت ظهورنا، والأوزار قد أثقلت كواهلنا، وأنت الشافع المشفع، الموعود بالشفاعة والمقام المحمود. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾. وقد جئناك ظالمين لأنفسنا، مستغفرين لذنوبنا، فاشفع لنا إلى ربك، واسأله أن يميتنا على سنتك، وأن يحشرنا في زمرتك، وأن يوردنا حوضك، وأن يسقينا كأسك غير خزايا ولا نادمين، الشفاعة الشفاعة يا رسول الله ﷺ؛ يقولها ثلاثاً: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ الآية.

ويبلغه سلام من أوصاه فيقول: السلام عليك يا رسول الله من فلان ابن فلان، يستشفع بك إلى ربك فاشفع له ولجميع المسلمين، ثم يقف عند وجهه مستدبر القبلة، ويصلي عليه ما شاء... »

إلى أن ذكر سلام الزائر وثناءه على أبي بكر ثم عمر إلى أن قال:

« ... ثم يرجع قدر نصف ذراع فيقول: السلام عليكما يا ضجيعي رسول الله ورفيقيه ووزيريه ومشيريه والمعاونين له على القيام في الدين، والقائمين بعده بمصالح المسلمين، جزاكما الله أحسن جزاء، جئناكما نتوسل بكما إلى رسول الله ليشفع لنا ويسأل ربنا أن يقبل سعينا، ويحيينا على ملته، ويميتنا عليها، ويحشرنا في زمرته؛ ثم يدعو لنفسه ولوالديه، ولمن أوصاه بالدعاء ولجميع المسلمين.

ثم يقف عند رأسه ﷺ كالأوّل، ويقول:

اللهم إنك قلت وقولك الحق: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾ الآية، وقد جئناك سامعين قولك، طائعين أمرك، مستشفعين

بنبيك إليك، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآية ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إلى آخر السورة.

ويزيد في ذلك ما شاء وينقص ما شاء، ويدعو بما يخضره من الدعاء، ويوفق له إن شاء الله تعالى.

ثم يأتي أسطوانة أبي لبابة التي ربط نفسه فيها حتى تاب الله عليه، وهي بين القبر والمنبر، ويصلّي ركعتين ويتوب إلى الله تعالى، ويدعو بما شاء؛ ثم يأتي الروضة وهي كالحوض المربع، وفيها يصلي أمام الموضع اليوم، فيصلي فيها ما تيسر له، ويدعو ويكثر من التسبيح والثناء على الله تعالى والاستغفار.

ثم يأتي المنبر فيضع يده على الرمانة التي كان رسول الله ﷺ يضع يده عليها إذا خطب ليناله بركة الرسول ﷺ، ويصلي عليه ويسأل الله ما شاء، ويتعوّذ برحمته من سخطه وغضبه، ثم يأتي الأسطوانة الحنانة، وهي التي فيها بقية الجذع الذي حنّ إلى النبي ﷺ حين تركه وخطب على المنبر، فنزل ﷺ فاحتضنه فسكن، ويجتهد أن يحيي ليله مدّة مقامه بقراءة القرآن، وذكر الله تعالى، والدعاء عند المنبر والقبر وبينهما سراً وجهراً، ويستحبّ أن يخرج بعد زيارته ﷺ إلى البقيع.

الثاني: كلام الإمام كمال الدين بن الهمام الحنفي ت ٨٦١هـ:

في كتابة (فتح القدير) في آخر الكلام على الحج:

« المقصد الثاني: في زيارة قبر النبي ﷺ

قال مشايخنا رحمهم الله تعالى: من أفضل المندوبات. وفي (مناسك الفكر وشرح المختار) إنها قريبة من الوجوب لمن له سعة.

روى الدارقطني والبزار عنه ﷺ : «من زار قبري وجبت شفاعتي»، وأخرج الدارقطني عنه عليه الصلاة والسلام: «من جاء زائراً لا تعمله حاجة إلا زيارتي كان حقًّا عليّ أن أكون شفيعاً له يوم القيامة»، وأخرج الدراقطني أيضاً: « من حج وزار قبري بعد موتى كان كمن زارني في حياتي » إلى أن قال:

ثم يأتي القبر الشريف فيستقبل جداره ويستدبر القبلة. وما روى عن أبي الليث من أنه يقف مستقبل القبلة مردود بقول أبي حنيفة رضي الله عنه في سنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: من السنة أن تأتي قبر النبي ﷺ من قبل القبلة، وتجعل ظهرك إلى القبلة، وتستقبل القبر بوجهك. ثم قال الهمام: ويسأل الله تعالى حاجته متوسلا إلى الله بحضرة نبيه ﷺ . وأعظم المسائل وأهمها حسن الخاتمة والرضوان والمغفرة.

ثم يسأل النبي ﷺ الشفاعة فيقول:

يا رسول الله أسألك الشفاعة وأتوسل بك في أن أموت مسلماً على ملتك وسنتك، ويذكر كل ما كان من قبيل الاستعطاف والرفق.

ثم قال: ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بقيع الغرقد فيزور القبور التي به، ثم يأتي أُحداً يوم الخميس مبكراً فيزور شهداء أحد، ويبدأ بقبر حمزة، ويزور أحداً نفسه، ففي الصحيح عنه ﷺ : «أحد جبل يحبنا ونحبه»، وفي رواية لابن ماجه « إنه على ترعة من ترع الجنة، وأن عيرا على ترعة من ترع النار»، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: مر رسول الله ﷺ بمصعب بن عمير فوقف على قبره وقال: « أشهد أنكم أحياء عند الله، فزوروهم وسلموا عليهم، فو الذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلا ردوا عليه السلام إلى يوم القيامة»، ثم قال: وإنه يستحب إذا عزم على الرجوع إلى أهله أن يأتي القبر الشريف فيسلم ويدعو بما أحب له ولوالديه أ.هـ المقصود منه.

ب- التوسل عند المالكية:

ذكر القاضي عياض بسنده في (الشفاء) في فصل (في أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته) قال:

ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله ﷺ ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما فقال: ﴿ تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾، ومدح قوما فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ الآية. وذم قوما فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ الآية، وأن حرمته ميتاً كحرمته حياً، فاستكان لها أبو جعفر، وقال يا أبا عبد الله: أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾ الآية» أ.هـ .

فهذه الحكاية عن الإمام مالك صريحة في جواز التوسل بل استحبابه وهي وأن كانت ضعيفة الإسناد -في رأي البعض- فلها شواهد تشهد لصحة معناها من أدلة التوسل السابقة وغيرها وقد تلقاها أهل المذهب بالقبول وعملوا بمقتضاها وناهيك بالقاضي عياض حيث استدل بها ولم يعقبها بما يخالفها، ولهذا لا يحفظ عن أحد من المالكية قول بمنع التوسل بالنبي ﷺ، أو كراهته؛ بل كلهم متفقون على جوازه واستحبابه.

وإنما اختلفوا في التوسل بغيره كقول ابن العربي: لا يزار قبر ينتفع به إلا قبر نبينا ﷺ. وكقول العلامة الشارمساحي المالكي: أن قصد الانتفاع بالميت بدعة إلا في زيارة قبر المصطفى ﷺ، وقبور المرسلين صلوات الله عليهم

أجمعين، وأجابوا عنهما بأنهما خلاف قول الجمهور، وخلاف عمل الأمة الخ كلامهم، ونقلوا أيضاً أن ابن عبد السلام المالكي منع التوسل بغير النبي ﷺ، وأن ابن عرفة أجازه لتوسل عمر بالعباس، وأجابوا عن كلام ابن عبد السلام بأنه لا معول عليه وأن الراجح ما قاله ابن عرفه، ونصوا على أن التوسل بالنبي ﷺ متفق على جوازه أي عند المالكية.

وقد نقل القاضي عياض في (الشفاء) في فصل (في زيارة قبره عليه السلام وفضل من زاره وسلم عليه وكيف يسلم ويدعو) قال: « ... قال مالك في (المبسوط): لا أرى أن يقف على قبر النبي ﷺ يدعو ولكن يسلم ويمضي » .

ثم نقل عن مالك في (المبسوط) أيضاً: « وليس يلزم من دخل المسجد وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر، وإنما ذلك للغرباء. وقال فيه أيضاً: لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر، فقيل له: إن ناسا من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا وتركه واسع ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده» أ.هـ.

وواضح من كلام الإمام مالك رضي الله عنه أنه يفرق بين أهل المدينة المقيمين فيها وغيرهم من المسافرين والغرباء، فهو كرهه لأهل المدينة المقيمين لما في فعلهم ذلك من اتخاذ القبر الشريف عيداً وهو منهي عنه بالإضافة إلى أن مزاحمتهم للغرباء والمسافرين ستفضي إلى منعهم من استيفاء آداب الزيارة والتمتع بها بعد أن حضروا خصيصا لذلك.

قال ابن فرحون المالكي في مناسكه:

اختلف أصحابنا في محل الوقوف للدعاء ففي الشفاء قال مالك في رواية ابن وهب إذا سلم على النبي ﷺ يقف للدعاء ووجهه إلى القبر الشريف لا إلى القبلة، وقد سأل الخليفة المنصور مالكا فقال يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم استقبل رسول الله ﷺ؟ فقال مالك ولم تصرف وجهك عنه وهو ووسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة، وقال مالك في المبسوط: لا أرى أن يقف عند القبر يدعو، ولكن يسلم ويمضى، ولعل ذلك ليس اختلاف قول منه وإنما أمر المنصور بذلك لأنه يعلم ما يدعو ويعلم آداب الدعاء بين يديه ﷺ ، فأمن عليه من سوء الأدب فافتاه بذلك، وأفتى العامة أن يسلموا وينصرفوا لئلا يدعوا تلقاء وجهه الكريم ويتوسلوا به في حضرته إلى الله العظيم فيما لا ينبغي الدعاء به أو فيما يكره أو يحرم، فمقاصد الناس وسرائرهم مختلفة وأكثرهم لا يقوم بآداب الدعاء ولا يعرفها فلذلك أمرهم مالك بالسلام والانصراف أ.هـ كلامه. انظر (الرد المحكم المتين) ص٩٥.

وكلام عبد الله بن وهب نقله القاضي عياض في (الشفاء) في الباب الرابع في فصل (حكم زيارة قبره) قال:

« قال مالك في رواية ابن وهب: وهو إذا سلم على النبي ﷺ ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة، ويدنو ويسلم ولا يمس القبر بيده » أ.هـ.

وعبد الله بن وهب هذا هو أجَلّ أصحاب مالك وهو أحد الأئمة الأعلام وكلامه مقدّم على كلام إسماعيل بن إسحاق القاضي في المبسوط إذا لم يمكن الجمع بينهما لسببين:

الأول: أن عبد الله بن وهب تلميذ مالك المباشر في حين أن إسماعيل القاضي لم يلق مالكا بل ولد بعد وفاته.

الثاني: أن عبد الله بن وهب المصري والمصريين عموما أكثر علما بمذهب مالك وأدري بنصوص كلامه من أهل العراق.

ويؤكد ذلك ما ذكره ابن المواز في كتاب الحج من الموازية، باب ما جاء في الوداع قال:

« قال أشهب: قيل لمالك: فالذي يلتزم أترى له أن يتعلق بأستار الكعبة عند الوداع قال لا ولكن يقف ويدعو قيل له وكذلك عند قبر النبي ﷺ قال نعم أهـ والموازية من أجل كتب المالكية القديمة المعتمد عليها» أهـ. من نصرة الإمام السبكي[1] ص٦٠.

قال ابن الحاج في (المدخل) في (باب صفة زيارة القبور):

« ... فإن كان الميت المزار ممن ترجى بركته فيتوسل به إلى الله تعالى وكذلك يتوسل الزائر بالنبي ﷺ؛ بل يبدأ بالتوسل إلى الله تعالى بالنبي ﷺ إذ هو العمدة في التوسل والأصل في هذا كله والمشرع له فيتوسل به ﷺ وبمن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وقد روى البخاري عن أنس أن عمر رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس فقال: اللهم إنا كنا نتوسل اليك بنبيك صلى الله عليه وآله وسلم فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا فيسقون أهـ، ثم يتوسل بأهل تلك المقابر أعني بالصالحين منهم في قضاء حوائجه ومغفرة ذنوبه، ثم يدعو لنفسه ولوالديه ولمشايخه ولأقاربه ولأهل تلك المقابر ولأموات المسلمين ولأحيائهم وذريتهم إلى يوم الدين، ولمن غاب عنه من إخوانه ويجأر إلى الله تعالى بالدعاء عندهم ويكثر التوسل بهم إلى الله تعالى

---

(١) نصرة الإمام السبكي برد الصارم المنكي تأليف العلامة الشيخ إبراهيم السمنودي ط. مطبعة الجمهور بالقاهرة سنة ١٣١٩هـ.

لأنه سبحانه وتعالى اجتباهم وشرفهم وكرمهم فكما نفع بهم في الدنيا ففي الآخرة أكثر، فمن أراد حاجه فليذهب إليهم وليتوسل بهم فإنهم الواسطة بين الله تعالى وخلقه، وقد تقرر في الشرع وعلم ما لله تعالى بهم في الاعتناء وذلك كثير مشهور وما زال الناس من العلماء والأكابر كابراً عن كابر مشرقا ومغربا يتبركون بزيارة قبورهم ويجدون بركة ذلك حسّاً ومعنى.

وقد ذكر الشيخ الإمام أبو عبد الله ابن النعمان رحمه الله في كتابه المسمى بسفينة النجاء لأهل الالتجاء في كرامات الشيخ أبي النجاء في أثناء كلامه على ذلك ما هذا لفظه: تحقق لذوي البصائر والاعتبار أن زيارة قبور الصالحين محبوبة لأجل التبرك مع الاعتبار فإن بركة الصالحين جارية بعد مماتهم كما كانت في حياتهم، والدعاء عند قبور الصالحين والتشفع بهم معمول به عند علمائنا المحققين من أئمة الدين أهـ » .

ثم ذكر حديث « لا تشد الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد ... » الحديث وبين أنه لا يمنع السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين إلى أن قال: « ... وأما عظيم جناب الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيأتي إليهم الزائر ويتعين عليه قصدهم من الأماكن البعيدة فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل والإنكسار والمسكنة والفقر والفاقة والحاجة والاضطرار والخضوع ويحضر قلبه وخاطره إليهم وإلى مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره؛ لأنهم لا يبلون ولا يتغيرون ثم يثنى على الله بما هو أهله ثم يصلى عليهم ويترضى عن أصحابهم ثم يترحم عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم يتوسل إلى الله تعالى بهم في قضاء مأربه ومغفرة ذنوبه ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم ويجزم بالإجابة ببركتهم، ويقوى حسن ظنه في ذلك، فإنهم باب الله المفتوح وجرت سنته سبحانه وتعالى في قضاء الحوائج على أيديهم وبسببهم ومن

عجز عن الوصول إليهم فليرسل بالسلام عليهم ويذكر ما يحتاج إليه من حوائجه ومغفرة ذنوبه وستر عيوبه إلى غير ذلك فإنهم السادة الكرام والكرام لا يردون من سألهم ولا من توسل بهم ولا من قصدهم ولا من لجأ إليهم » أ.هـ المقصود منه المدخل ١/٢٥٤-٢٥٨ فصل زيارة القبور.

ج- التوسل عند الشافعية:

١- قال الإمام النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ في المناسك: الباب السادس في زيارة قبر مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ وشرف وكرم الخ:

« اعلم أن لمدينة رسول الله أسماء جمة، وعدها وذكر سبب تسميتها، ثم قال: في الباب مسائل- الأولى: إذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة فليتوجهوا إلى مدينة رسول الله ﷺ لزيارة تربته فإنها من أعظم القربات وأنجح المساعي.

وقد روى البزار والدارقطني بإسنادهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « من زار قبري وجبت له شفاعتي » ... إلى أن قال: ثم يأتي القبر الشريف فيستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر ويقف ناظراً إلى أسفل ما يستقبله غاضّ الطرف في مقام الهيبة والإجلال فارغ القلب من علائق الدنيا مستحضراً في قلبه جلال موقفه ومنزلة من هو بحضرته ﷺ .

ثم يسلم على رسول الله ولا يرفع صوته وليقتصر فيقول: السلام عليك يا رسول الله. ثم إن كان أحد أوصاه بالسلام على رسول الله فليقل: السلام عليك من فلان. ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله ﷺ ويتوسل إليه في حق نفسه ويتشفع به إلى ربه، ومن أحسن ما يقوله ما حكاه أصحابنا عن العتبي. قال:

كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ الآية. وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم
أنت الشفيع الذي ترجى شفاعته على الصراط إذا ما زلت القدم
وصاحباك فلا أنساهما أبدًا مني السلام عليكم ما جرى القلم

قال: ثم انصرف فغلبتني عيناي، فرأيت رسول الله ﷺ في النوم فقال: (يا عتبى الحق الأعرابي وبشِّره بأن الله تعالى قد غفر له) ... » ثم قال: «ويستحب أن يزور قبور الشهداء بأحد ... » إلى أن قال: « وإذا أراد السفر من المدينة استحب أن يودع المسجد بركعتين ويدعو بما أحب ويأتي القبر ويعيد نحو السلام والدعاء ... » إلى آخر ما قال. وذكر النووي نحو ذلك أيضاً في المجموع شرح المهذب (٨/٢٧٤) وفي (الأذكار).

٢- كلام حجة الإسلام الإمام الغزالي في التبرك بزيارة قبور الأنبياء والصالحين.

- وقال الإمام الغزالي في كتابة « الإحياء » [1]:

« كتاب آداب الحج ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام،

---

(١) الإحياء (٢/٢٤٧).

وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته».

٣- رأى الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز المعروف بالذهبيّ الشافعي المذهب ت ٧٤٨هـ.

وهو تلميذ الشيخ ابن تيمية في الحديث وتأثر به في بعض أفكاره.

يقول الذهبي:

« فمن وقف عند الحجرة المقدسة ذليلا مسلما مصليا على نبيه فيا طوبى له فقد أحسن الزيارة وأجمل في التذلل والحب وقد أتى بعبادة زائدة على من صلى عليه في أرضه أو في صلاته إذ الزائر له أجر الزيارة وأجر الصلاة عليه والمصلي عليه في سائر البلاد له أجر الصلاة فقط، فمن صلى عليه واحدة صلى الله عليه عشرا ولكن من زاره- صلوات الله عليه وسلامه وعلى آله- وأساء أدب الزيارة أو سجد للقبر أو فعل ما لا يشرع فهذا فعل حسناً وسيئا فَيُعلَّم برفق والله غفور رحيم، فوالله ما يحصل الإنزعاج لمسلم والصياح وتقبيل الجدران وكثرة البكاء إلا وهو محب لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فحبه المعيار والفارق بين أهل الجنة وأهل النار فزيارة قبره من أفضل القرب وشد الرحل إلى قبور الأنبياء والأولياء لئن سلمنا أنه غير مأذون فيه لعموم قوله صلوات الله عليه: « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » فشد الرحال إلى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم مستلزم لشد الرحل إلى مسجده وذلك مشروع بلا نزاع إذ لا وصول إلى حجرته إلا بعد الدخول إلى مسجده، فليبدأ بتحية المسجد ثم بتحية صاحب المسجد رزقنا الله وإياكم ذلك أمين » .

سير أعلام النبلاء (٤/٤٨٣، ٤٨٥).

وروى أيضاً بسنده عن نافع عن ابن عمر: « أنه كان يكره مس قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قلت – القائل الذهبي- :/ كره ذلك لأنه رآه إساءة أدب. وقد سئل أحمد بن حنبل عن مس القبر النبوي وتقبيله فلم ير بأساً. رواه عنه ولده عبد الله بن أحمد.

فإن قيل: فهلا فعل ذلك الصحابة؟ قيل: لأنهم عاينوه حيا، وتملوا به وقبلوا يده وكادوا يقتتلون على وضوئه واقتسموا شعره المطهر يوم الحج الأكبر وكان إذا تنخم لا تكاد نخامته تقع إلا في يد رجل فيدلك بها وجهه ونحن فلما يصح لنا مثل هذا النصيب الأوفر تراميا على قبره بالالتزام والتبجيل والاستلام والتقبيل، ألا ترى كيف فعل ثابت البناني كان يقبل يد أنس بن مالك ويضعها على وجهه ويقول: يد مست يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه الأمور لا يحركها من المسلم إلا فرط حبه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ هو مأمور بأن يحب الله ورسوله أشد من حبه لنفسه وولده والناس أجمعين ومن أمواله ومن الجنة وحورها بل خلق من المؤمنين يحبون أبا بكر وعمر أكثر من حب أنفسهم.

وحكى لنا جندار أنه كان بجبل البقاع فسمع رجلاً سب أبا بكر فسل سيفه وشرب عنقه، ولو كان سمعه يسبه أو يسب أباه لما استباح دمه. ألا ترى الصحابة في فرط حبهم للنبي ﷺ قالوا: ألا نسجد لك؟ فقال: لا فلو أذن لهم لسجدوا له سجود إجلال وتوقير لا سجود عبادة كما قد سجد أخوة يوسف ليوسف. وكذلك القول في السجود لقبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على سبيل التعظيم والتبجيل لا يكفر به أصلا بل يكون

عاصيا ليعرف أن هذا منهي عنه وكذلك الصلاة إلى القبر » أ.هـ (معجم الشيوخ ١/٧٤،٧٣).

د- التوسل عند الحنابلة:

١- الإمام أحمد بن حنبل ﷺ .

روى ابن أبي الدنيا بسنده في كتابه (مجابي الدعوة) قال: « جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد بن أبجر، فجسّ بطنة فقال: بك داء لا يبرأ قال: ما هو؟ قال الدبيلة [خرّاج أو دمّل كبير في الجوف يقتل صاحبه غالبا] قال: فتحول الرجل فقال: الله الله، الله ربي، لا أشرك به شيئا، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ﷺ تسليمًا، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك وربي يرحمني مما بي. قال فجس بطنه فقال: قد برئت ما بك علة.

نقل ابن تيمية هذا الخبر ثم قال: « قلت: فهذا الدعاء ونحوه قد روي أنه دعا به السلف، ونقل عن أحمد بن حنبل في منسك المروذي التوسل بالنبي ﷺ في الدعاء » ، أ.هـ.

انظر (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) تحقيق ربيع بن هادي المدخلي ص١٨٣-١٨٤.

وذكر ابن تيمية أيضاً في نفس كتابه أحد أنواع التوسل بالنبي ﷺ وهو: (التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته) مشيراً إلى أن الإمام أحمد من القائلين بذلك فقال:

« وإنما يعرف النزاع في الحلف بالأنبياء، فعن أحمد في الحلف بالنبي ﷺ روايتان:

إحداهما: لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور؛ مالك وأبي حنيفة والشافعي.

والثاني: ينعقد اليمين به واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي وأتباعه، وابن المنذر وافق هؤلاء.

وقصر أكثر هؤلاء النزاع في ذلك على النبي ﷺ خاصة، وعدَّى ابن عقيل هذا الحكم إلى سائر الأنبياء.

وإيجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وإن كان نبيًّا قول ضعيف في الغاية مخالف للأصول والنصوص فالأقسام به على الله- والسؤال به بمعنى الإقسام- هو من هذا الجنس » أ.هـ. ص ٨٦.

قال الإمام أحمد في منسك المروزي عن صفة زيارة قبر النبي ﷺ :

« ثم أئت الروضة وهي بين القبر والمنبر فصل فيها وادع بما شئت ثم أئت قبر النبي ﷺ فقل: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا محمد بن عبد الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، وأشهد أنك بلغت رسالة ربّك ونصحت لأمتك وجاهدت في سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وعبدت الله حتى أتاك اليقين، فجزاك الله أفضل ما جزى نبيا عن أمته، ورفع درجتك العليا وتقبل شفاعتك الكبرى وأعطاك سؤلك في الآخرة والأولى كما تقبل من إبراهيم.

اللهم احشرنا في زمرته وتوفنا على سنته وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشرباً روياً لا نظمأ بعدها أبداً » .

روى ذلك ابن تيمية في كتابه (الرد على الإخنائي) ص٢٩٠ ط. دار الخراز الأولى (١٤٢٠هـ).

ونقل ابن تيمية في موضع آخر من رده المذكور من كلام الإمام أحمد في منسك المروذي « وسل الله حاجتك متوسلا إليه بنبيه ﷺ تُقْضَ من الله عز وجل » أ.هـ.

قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء:

قال أبو بكر الأثرم: قلت لأبي عبد الله- أحمد بن حنبل- قبر النبي ﷺ يمس ويتمسح به؟ فقال: ما أعرف هذا؟ قلت له: فالمنبر؟ فقال: أما المنبر فنعم، فقد جاء فيه، قال أبو عبد الله: شيء يروونه عن ابن أبي فديك عن أبي ذئب عن ابن عمر: أنه مسح على المنبر. قال: ويروونه عن سعيد بن المسيب في الرمانه. قلت- يعني الأثرم- ويروون عن يحيى بن سعيد الأنصاري: أنه حيث أراد الخروج إلى العراق جاء إلى المنبر فمسحه ودعا فرأيته استحسنه. ثم قال: لعله عند الضرورة لا شيء فيه، قيل لأبي عبد الله: إنهم يلصقون بطونهم بجدار القبر، وقلت له رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسونه ويقومون ناحية منه فيسلمون فقال أبو عبد الله: نعم هكذا كان ابن عمر يفعل، ثم قال أبو عبد الله: بأبي هو وأمي ﷺ وجاء في مسائل الإمام أحمد لابنه عبد الله قال: سألت أبي عن الرجل يمس قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتبرك بمسه وتقبيله ويفعل بالمنبر مثل ذلك ، جاء ثواب الله تعالى، فقال: لا بأس به.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي ﷺ فيضعها على فيه يقبلها وأحسب أني رأيته يضعها على عينه ويغمسها في الماء ويشربه ويستشفي به.

ورأيته أخذ قصعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فغسلها في حب الماء ثم شرب فيها. ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفى به ومسح به يديه ووجهه.

قلت- القائل: الذهبي- أين المتنطع المنكر على أحمد وقد ثبت أن عبد الله سأل أباه عمّن يلمس رمانة منبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويمس الحجرة النبوية، فقال: لا أرى بذلك بأسا » أ.هـ.

أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج وأهل البدع سير أعـــلام النـــبلاء (٢١٢/١١).

وفي كتاب العلل والسؤالات لعبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن الرجل يمس منبر النبي ﷺ يتبرك بمسه، ويقبله. ويفعل بالقبر مثل ذلك رجـــاء ثواب الله تعالى، قال: لا بأس به.

قال صاحب (الرد المحكم المتين): « قال الحافظ العراقي أخبرني الحافظ أبو سعيد العلائي قال رأيت في كلام ولد أحمد بن حنبل في جزء قديم عليه خـــط ابن ناصر وغيره من الحفاظ أن الإمام أحمد سئل عن تقبيل قبر النبي ﷺ وتقبيـــل غيره فقال لا بأس بذلك فاريناه ابن تيمية فصار يتعجب من ذلك ويقول عندي أحمد جليل يقول هذا؟! قال وأي عجب في ذلك » أ.هـــ ص٢٧٣.

٢- قاضي القضاة أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي ت ٥١٣هـــ.

قال في (التذكرة) مخطوط بظاهرية دمشق (رقم ٨٧ فقه حنبلي):

« فصل. ويستحب له قدوم مدينة الرسول صلوات الله عليه فيأتي مسجده فيقول عند دخوله باسم الله اللهم صل على محمد وآل محمد وافتح لي أبواب رحمتك وكف عني أبواب عذابك، الحمد لله الذي بلغ بنا هذا المشهد وجعلنا لذلك أهلا، الحمد لله رب العالمين. ثم تأتي حائط القبر فلا تمسه ولا تلصق به صدرك، لأن ذلك عادة اليهود وأجعل القبر تلقاء وجهك وقم مما يلي المنبر وقل السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته اللهم صل على محمد وعلى آل محمد... إلى آخر ما تقوله في التشهد الأخير، ثم تقول اللهم أعط محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود الذي وعدته، اللهم صل على روحه في الأرواح وجسده في الأجساد كما بلغ رسالاتك وتلا آياتك وصدع بأمرك حتى أتاه اليقين، اللهم إنك قلت في

كتابك لنبيك ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وإني قد أتيت نبيك تائبا مستغفراً فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك ﷺ نبي الرحمة، يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي ليغفر لي ذنوبي، اللهم إني أسألك بحقه أن تغفر لي ذنوبي، اللهم اجعل محمداً أول الشافعين وأنجح السائلين وأكرم الأولين والآخرين اللهم كما آمنا به ولم نره وصدقناه ولم نلقه فأدخلنا مدخله واحشرنا في زمرته وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشربا صافيا رويا سائغا هنيا لا نظمأ بعده أبدا غير خزايا ولا ناكثين ولا مارقين ولا مغضوباً علينا ولا ضالين واجعلنا من أهل شفاعته. ثم تقدم عن يمينك فقل السلام عليك يا أبا بكر الصديق. السلام عليك يا عمر الفاروق، اللهم اجزهما عن نبيهما وعن الإسلام خيرا، اللهم ﴿ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ...﴾ [الحشر: ١٠] وتصلي بين القبر والمنبر في الروضة وإن أحببت تمسح بالمنبر وبالحنانة وهو الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ فلما اعتزل عنه حن إليه كحنين الناقة، وتأتي مسجد قباء فتصلي لأن النبي ﷺ كان يقصده فيصلي فيه، وإن أمكنك فأت قبور الشهداء وزرهم وأكثر من الدعاء في تلك المشاهد حتى كأنك تنظر إلى مواقفهم واصنع عند الخروج ما صنعت عند الدخول».

٣- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين السامَرِّي نصير الدين (ت ٦١٦هـ).

قال في كتاب (المستوعب) في باب زيارة قبر النبي ﷺ :

« وإذا قدم مدينة رسول الله ﷺ استُحبّ له أن يغتسل لدخوله، ثمّ يأتي مسجد رسول الله ﷺ، ويقدّم رجله اليمنى في الدخول، ثمّ يأتي حائط القبر، فيقف ناحيته، ويجعل القبر تلقاء وجهه، والقبلة خلف ظهره، والمنبر عن يساره، ثمّ ذكر كيفية السلام والدعاء وأطال، ومنه: اللّهمّ إنّك قلت في كتابك لنبيّك- عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ الآية، وإنّي قد أتيتك مستغفراً، فأسألك أن توجب لي المغفرة، كما أوجبتها لمن أتاه في حال حياتهِ اللّهمّ إنّي إليك بنبيّك » وذكر دعاء طويلاً، ثم قال: وإذا أراد الخروج عاد إلى القبر فودّع ».

وهذا أبو عبد الله من أئمة الحنابلة، ساق هذا الكلام سياق المتفق عليه. ومن جملة ما أفاد: أنّه يتوسّل بالنبي ﷺ ، ويتوجّه به بعد وفاته كما في حياته، وأنّ الآية عامّة وشاملة للحياة وبعد الوفاة.

وأبو عبد الله السامري هذا ولد سنة ٥٣٥هـ بسامرّا وتفقه على أبي حكيم النهرواني ولازمه، وبرع في الفقه والفرائض وصنف فيهما التصانيف المشهورة، وولي القضاء بسامرّاء مدة ثم ولي القضاء والحسبة ببغداد...

قال ابن النجار: كان شيخا جايلا فاضلا نبيلا، حسن المعرفة بالمذهب والخلاف وله مصنفات فيها حسنة، وما أظنه روى شيئاً من الحديث.

له تصانيف منها كتاب (المستوعب) في الفقه، وكتاب (الفروق).

قال ابن العماد الحنبلي: وفي هذين الكتابين فوائد جليلة ومسائل غريبة أ.هـ (شذرات الذهب ٥/٧٠).

٤- الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة (ت ٦٢٠هـ).

قال في كتاب (المغني) وهو أجلّ كتب الفقه الحنبلي على الإطلاق في باب صفة زيارته ﷺ :

« تأتي القبر فتولي ظهرك القبلة، وتستقبل وسطه وتقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه، إلى أن قال: اللهم أجز عنا نبينا أفضل ما جازيت به أحداً من النبيين والمرسلين، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يغبطه به الأولون والآخرون»، إلى أن قال: اللهم إنك قلت وقولك الحق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبي مستشفعاً بك إلى ربي » أ.هـ.

والاستشفاع أحد صور التوسل كما مر، وقد بين لنا الإمام أن الزائر يستغفر والرسول ﷺ يستغفر وهو في البرزخ أيضاً بنص الآية الكريمة التي استدل بها.

وموفق الدين ابن قدامة هذا هو من قال فيه الشيخ ابن تيمية: « إنه لم يدخل الشام بعد الأوزاعي أفضل منه » أ.هـ.

٥- قاضي القضاة شمس الدين محمد بن مفلح الراميني (تلميذ ابن تيمية) ت٧٦٣هـ.

قال في كتاب (الفروع) في الفقه (١/٥٩٥):

« ويجوز التوسل بصالح وقيل: يستحب. قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروزي: (إنه يتوسل بالنبي ﷺ في دعائه). وجزم به في المستوعب وغيره » أ.هـ.

وابن مفلح هذا قال عنه ابن شطى في (مختصر طبقات الحنابلة):

« ... قال ابن القيم: ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح. حضر عند الشيخ تقي الدين بن تيمية ونقل عنه كثيراً، وكان يقول له ما أنت ابن مفلح بل أنت مفلح، وكان أخبر الناس بمسائله واختياراته حتى كان ابن القيم يراجعه بذلك وله على المقنع نحو ثلاثين مجلداً وعلى المنتقى مجلدان، وله كتاب الفروع في الفقه وهو من أجلّ الكتب وأنفعها وأجمعها للفوائد لكنه لم يبيضه ... » أ.هـ.

وقال ابن مفلح في كتاب (الفروع) في آخر أبواب الحج في زيارة قبره ﷺ: وتستحب الصلاة على النبي ﷺ وزيارة قبره وقبر صاحبيه رضي الله عنهما، فيسلم عليه مستقبلا له لا للقبلة (هـ) ثم يستقبلها ويجعل الحجرة عن يساره ويدعو، ذكره أحمد، وظاهر كلامهم قرب من الحجرة أو بعد، ... » إلى أن قال: « وفي المستوعب وغيره: أنه يستقبله ويدعو، قال ابن عقيل وابن الجوزي: يكره قصد القبور للدعاء » أ.هـ. المقصود.

٦- الشيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي المصري (ت١٠٥١هـ).

قال في كتابه (كشّاف القناع عن متن الإقناع) في كتاب الحج .

« فصل: وإذا فرغ من الحج استحُبّ له زيارة النبي ﷺ (وقبري صاحبيه) أبي بكر وعمر (رضي الله) تعالى (عنهما).

لحديث الدارقطني عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي » وفي رواية « من زار قبري وجبت له شفاعتي » رواه باللفظ الأول سعيد.

« تنبيه » قال ابن نصر الله: لازم استحباب زيارة قبره ﷺ استحباب شد الرحال إليها، لأن زيارته للحاج بعد حجه لا تمكن بدون شد الرحل. فهذا كالتصريح باستحباب شد الرحل لزيارته ﷺ » .

إلى أن قال: « ...يقول في دخول غيره من المساجد ثم يصلي تحية المسجد ثم يأتي القبر الشريف، فيقف قبالة وجهه ﷺ مستدبر القبلة، ويستقبل جدار الحجرة. والمسمار الفضة في الرخامة الحمراء فيسلم عليه فيقول: السلام عليك يا رسول الله. كان ابن عمر ﷺ لا يزيد على ذلك. وإن زاد فحسن ولا يرفع صوته ثم يستقبل القبلة والحجرة عليهما بخلاف حج الفرض، فيمحض النية له فإذا دخل مسجدها أي مسجد المدينة سن له أن يقول عند دخوله ما يقول في دخول غيره من المساجد وتقدم في صفة الصلاة ثم يصلي تحية المسجـــد لعموم الأوامر ثم يأتي القبر الشريف، فيقف قبالة وجهه ﷺ مستدبر القبلة ويستقبل جدار الحجرة. ويستقبل (المسمار الفضة في الرخامة الحمراء ويسمى الآن بالكوكب الدري فيسلم عليه ﷺ فيقول: السلام عليك يا رسول الله. كان عبد الله ابن عمر ﷺوعن أبيه وعن سائر الصاحبة لا يزيد على ذلك. وإن زاد عليه فحسن قال في الشرح وشرح المنتهي. ويقول: السلام عليك أيها النبي ﷺ ورحمة الله وبركاته. السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه وعباده. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أشهد أنك بلغت رسالات ربك، ونصحت لأمتك. ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. وعبدت الله حتى أتاك اليقين. صلى الله عليك كثيراً. كما يحب ربنا ويرضى. اللهم أجز عنا نبينا أفضل ما جزيت أحداً من النبيين والمرسلين. وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته يعبطه به الأولون والآخرون، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم إنك قلت وقولك الحق ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ

﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]. وقد أتيتك مستغفراً من ذنوبي مستشفعاً بك إلى ربك، فأسألك يا رب أن توجب لي المغفرة. كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم اجعله أول الشافعين، وأنجح السائلين وأكرم الأولين، والآخرين، برحمتك يا أرحم الراحمين، ثم يدعو لوالديه ولإخوانه وللمسلمين أجمعين.

« فائدة » يروى عن العتبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وقد جئتك مستغفراً من ذنوبي مستشفعاً بك إلى ربي. ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، فحملتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتبي ألحق الإعرابي فبشره أن الله تعالى قد غفر له.

(ولا يرفع صوته) لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات:٢]. وحرمته ميتاً كحرمته حياً (ثم يستقبل القبلة و) يجعل (الحجرة عن يساره قريباً. لئلا يستدبر قبره[1] ﷺ ويدعو) بما أحب (ثم يتقدم قليلاً من مقام سلامه) عليه

---

(١) انظر حسن الأدب عند هذا العالم الجليل في تحذيره للزائر من أن يستدبر القبر، بخلاف بعض المعاصرين في زماننا الذين يأمرون الناس بتعمد استدبار القبر، نعوذ بالله من سوء الأدب مع رسول الله ﷺ.

ﷺ (نحو ذراع على يمينه، فيسلم على أبي بكر) الصديق (رضي الله عنه) فيقول: السلام عليك يا أبا بكر الصديق (ثم يتقدم نحو ذراع على يمينه فيسلم على عمر) بن الخطاب (رضي الله عنه) فيقول السلام عليك يا عمر الفاروق، ويقول: السلام عليكما يا صاحبي رسول الله ﷺ وضجيعيه، ووزيريه. اللهم أجزهما عن نبيهما وعن الإسلام خيراً، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ﷺ ومن حرم مسجدك يا أرحم الراحمين. قال في الشرح وشرح المنتهى (ولا يتمسح ولا يمس قبر النبي ﷺ ولا حائطه، ولا يلصق به صدره ولا يقبله) أي يكره ذلك لما فيه من إساءة الأدب والابتداع. قال الأثرم: رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسون قبر النبي ﷺ ، بل يقومون من ناحية فيسلمون. قال أبو عبد الله: وهكذا كان ابن عمر يفعل. وأما المنبر فروي عن ابن عمر أنه كان يضع يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم يضعها على وجهه » أ.هـ.

والشيخ منصور البهوتي هذا ذكره الغَزِّي فقال: « هو الشيخ الإمام شيخ الإسلام، كان إماما هُمَاماً علامة في سائر العلوم، فقيها متبحِّراً، أصوليا مفسراً، جبلا من جبال العلم وطوداً من أطواد الحكمة وبحراً من بحور الفضائل، له اليد الطولى في الفقه والفرائض وغيرهما » أ.هـ. النعت الأكمل ٢١٠-٢١٣ وذكره المحبيِّ في (خلاصة الأثر) فقال: « شيخ الحنابلة بمصر وخاتمة علمائهم بها، الذائع صيتهُ البالغة شهرته، كان عالما عاملا ورعاً، متبحراً في العلوم الدينية صارفاً أوقاته في تحرير المسائل الفقهية، ورحل الناس إليه من الآفاق لأخذ مذهب الإمام أحمد فإنه انفرد في عصره بالفقه وأخذ عن أكثر المتأخرين من الأصحاب الحنابلة... » إلى آخر الترجمة انظر ٤/٤٢٦.

متفرقات من نصوص السادة الحنابلة في التوسل والتبرك من كتب الفقه الحنبلي المعتمدة.

(و) أبيح (التوسل بالصالحين) رجاء الإجابة واستسقى عمر بالعباس، ومعاوية بيزيد بن الأسود. واستسقى به الضحاك بن قيس مرة أخرى ذكره الموفق. دقائق أولى النهى –ط. عالم الكتب: ١/٣٣٥.

التوسل مع صلاة الاستسقاء:

(ويستحب أن يخرج معه أهل الدين والصلاح والشيوخ) لأنه أسرع لإجابتهم، وقد استسقى عمر بالعباس ومعاوية بيزيد بن الأسود، واستسقى به الضحاك بن قيس مرة أخرى ذكره الموفق والشارح وقال السامري، وصاحب التلخيص: لا بأس بالتوسل في الاستسقاء بالشيوخ والعلماء المتقين وقال في المذهب يجوز أن، يستشفع إلى الله برجل صالح وقيل: يستحب قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروذي أنه يتوسل بالنبي في دعائه وجزم به في المستوعب وغيره وقال أحمد وغيره، في قوله ﷺ: « أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق » الاستعاذة لا تكون: بمخلوق قال إبراهيم الحربي: الدعاء عند قبر معروف الترياق المجرب، وقال شيخنا: قصده للدعاء عنده رجاء الإجابة بدعة، لا قربة باتفاق الأئمة ذكره في الفروع. (وكذا مميز الصبيان) يستحب إخراجه لأنه يكتب له ولا يكتب عليه، فترجى إجابة دعائه. (ويباح خروج أطفال وعجائز وبهائم)؛ لأن الرزق مشترك بين الكل وروى البزار مرفوعا « لولا أطفال رضع وعباد ركع، وبهائم رتع، لصب عليكم العذاب صبا » وروي أن سليمان ﷺ « خرج يستسقي فرأى نملة مستلقية، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم » . (ويؤمر سادة العبيد بإخراج عبيدهم)

رجاء استجابة دعائهم لانكسارهم بالرق (ويكره) أن يخرج (من النساء ذوات الهيئات) خوف الفتنة. كشاف القناع -ط. دار الكتب العلمية: ٢/٦٨-٦٩. وفي حاشية عثمان النجدي: (والتوسل بالصالحين) قال في المذهب.. إلخ حاشية عثمان النجدي- ط. مؤسسة الرسالة: ١/٣٥٧.

وأيضاً:

(ولا بأس بالتوسل بالصالحين ونصه) في منسكه الذي كتبه للمروذي أنه يتوسل (بالنبي ﷺ) في دعائه وجزم به في المستوعب وغيره. كشاف القناع- ط. دار الكتب العلمية: ٢/٧٣.

مطالب أولي النهي- ط. المكتب الإسلامي: ١/٨١٦، ٨١٧.

التبرك بالقبر المكرم:

ويجوز لمس القبر باليد، وعنه: يكره؛ لأن القرب يتلقى من التوقيف، ولم يرد به سنة؛ ولأنه عادة أهل الكتاب، وعن الشافعية كهذا، وعن الحنفية مثله والذي قبله، وعنه: يستحب، صححها أبو الحسين في التمام، لأنه يشبه مصافحة الحي، لا سيما ممن ترجى بركته. الفروع -ط. عالم الكتب: ٢/٣٠٠.

وأيضاً:

يجوز لمس القبر من غير كراهة قدمه في الرعايتين، والفروع، وعنه يكره، وأطلقهما في الحاويين، والفائق، وابن تميم، وعنه يستحب قال أبو الحسين في تمامه: وهي أصح. الإنصاف-ط. دار إحياء التراث العربي: ٢/٥٦٢-٥٦٣، كشاف القناع-ط. دار الكتب العلمية: ٢/١٥٠.

وأيضاً:

ولا بأس بلمس قبر بيد لا سيما من ترجى بركته. غاية المنتهى مع مطالب أولى النهى -ط. المكتب الإسلامي: ١/٩٣٤.

التبرك بالقبور عموما:

المغني ج:٢ ص:١٩٣- دار الفكر.

فصل ويستحب الدفن في المقبرة التي بكثر فيها الصالحون والشهداء لتناله بركتهم وكذلك في البقاع الشريفة وقد روى البخاري ومسلم بإسنادهما أن موسى عليه السلام لما حضره الموت سأل الله تعالى أن يدنيه إلى الأرض المقدسة رمية بحجر قال النبي ﷺ: "لو كنت ثمَّ لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر".

ولا بأس بالتوسل إلى الله تعالى في الاستشفاع بالشيوخ والزهاد وأهل العلم والفضل والدين من المسلمين.

المستوعب للسامرائي (١/٣٢٠) ط. دار خضر ١٩٩٩م.

وأيضاً:

أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه (١/١٢٠) عن أحمد بن جعفر القطيعي قال سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال وهو شيخ الحنابلة في وقته يقول: ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر يعني الكاظم فتوسلت به إلا سهل الله لي ما أحب.

تنبيه:

السؤال بسيدنا رسول الله ﷺ (بذاته) يشمل التزام ثلاثة أشياء:

١- محبته سبحانه وتعالى لنبيه أو وليه الصالح تلك المحبة التي اقتضت (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ليس لأن العذاب- نستغفر الله من ذكر ذلك- سيشمله ﷺ فالله قادر على تجنيبه ذلك، بل لأن فيهم من يستحقون العذاب لعدم إيمانهم به ولكن سيؤلمه ﷺ ذلك من مثل جار شفوق أو قريب مسالم أو صديق كان ﷺ يرجو إيمانه ... الخ.

وهذه المحبة من أفعال الله سبحانه التي اقتضتها صفات الرحمة وغيرها.

٢- محبته ﷺ لأتباعه وأفراد أمته وشفقته عليهم حتى لو أصابهم التقصير والضعف ودعائه لهم هذه المحبة التي اقتضت أن يرفض ما عرضه ملك الجبال أن يطبق على كفار مكة الأخشبين لرجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله. روى البيهقي أنه ﷺ قال لأصحابه كم وددت لو نرى إخواننا! قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال أنتم أصحابي....

(فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر).

(واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وهذا لدعاء شامل لكل أمة الأجابة (تعرض على أعمالكم فما وجدت خيرا حمدت الله وما غير ذلك استغفرت لكم) صحيح.

وهذا دعاء وشفاعة من النبي لنا ومحبته وشفقته من أفعاله ﷺ.

٣- تعلقنا نحن أفراد أمته به ﷺ ومحبتنا له وتعظيمنا له وتوقيره تنفيذاً لأمر الله سبحانه وتقرباً منه جل وعلى كم أجعل لك من صلاتي؟ ... الحديث.

وهذا من أفعالنا.

فالتوسل إذن دائر بين صفات الله وأفعاله ودعاء النبي وشفاعته وأفعاله وأفعالنا نحن والشرط الأساسي قبل التوسل وأثناءه وبعده هو إيماننا بالله وحده لا شريك له.

وكل عنصر من هؤلاء أجمعت الأمة على جواز التوسل به ففيم إذن النقاش والبحث؟ والتكفير والاتهام بالتكفير وبالشرك وتشبيه المسلمين بالمشركين!

وقد تبين مما سبق أن جماهير المسلمين كما نقلنا عن المذاهب الأربعة، بل وغيرهم أيضاً- مما يصح معه أن يعتبر إجماعا من الأمة- قد ذهبوا إلى

استحباب زيارة قبره الشريف والتوسل به ﷺ إلى الله و لم يشذ عن هذا الرأي- سوى ابن تيمية.

وكل من قال بحرمة شد الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ أو بحرمة التوسل به ﷺ بعد وفاته فهو مقلد لابن تيمية ومقتف أثره.

فنرجو من إخواننا الذين لا يرون التوسل أن يعرفوا أن الخلاف محصور بين الندب والكراهة ولا يصل إلى درجة الاتهام بالتكفير والشرك وحمل مخالفيهم على رأيهم وهو الرأي الشاذ المخالف لرأي الجمهور كما سبق.

إلحاق:

الزيارة وحديث: « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » :

ذهب بعض المتأخرين إلى حرمة السفر إلى زيارة قبر رسول الله ﷺ تبعا للشيخ ابن تيمية- فإنه أول من أحدث هذا الرأي- وكان عمدته فيه حديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى» حديث صحيح وله طرق كثيرة. والإجابة عن هذا الحديث من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: (تقدير المستثنى منه: مسجد)

هذا الاستثناء المذكور في الحديث استثناء مفرغٌ، ولابدَّ من تقدير المستثنى منه، وهو إما أن يُحمَل على عمومه فيقدر له أعمَّ العام لأن الاستثناء معيار العموم، فيكون التقدير لا تشدُّ الرحالُ إلى مكان إلا إلى المساجد الثلاثة.

وهذا باطل بداهة لأنه يستلزم تعطيل السفر مطلقاً إلا للمساجد الثلاثة.

ولكن لابد أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه.

قال ابن النجار الحنبلي في «شرح الكوكب المنير » (٢٨٦/٣):

ولا يصح الاستثناء أيضاً من غير الجنس نحو جاء القوم إلا حماراً، لأن

الحمار لم يدخل في القوم، وكذا: له عندي مائة درهم إلا ديناراً ونحوه، وهذا هو الصحيح من الروايتين عن الإمام أحمد ﷺ واختيار الأكثر من أصحابنا وغيرهم. اهـ.

واختاره الإمام الغزالي في المنخول (ص١٥٩).

ومن قال بجواز الاستثناء من غير الجنس قال: إنه مجاز.

وعليه فلا يصح أن يقال: قام القوم إلا حماراً مع إرادة الحقيقة. فإن أراد المجاز صح هنا بأن يجعل الحمار كناية عن البليد، كذا في المدخل لابن بدران الحنبلي (ص١١٧).

وفيه أيضاً قول الخرقي في مختصره: ومن أقر بشيء واستثنى من غير جنسه كان استثناؤه باطلاً. اهـ.

واستظهر أبو إسحق الشيرازي كونَ الاستثناء من غير الجنس من باب المجاز، كذا في نزهة المشتاق شرح لمع أبي إسحاق (ص٢٣٠- ٢٣١) لشيخ مشايخنا الشيخ يحيى أمان المكي رحمه الله تعالى.

وصفوةُ القول أن كون المستثنى لابد أن يكون من جنس المستثنى منه هو مذهب الحنابلة.

وأنَّ من جَوَّزَه جعله من باب المجاز، فرجع خلافهم إلى وفاق.

وعلى ما سبق تقريره ينبغي أن يقدر مستثنى منه يوافق المستثنى (المساجد) المذكور في الحديث. فيكون نظم الحديث كالآتي:

لا تشد الرحال إلى (مسجد) إلا إلى ثلاثة (مساجد).

وروايةُ شهرِ بنِ حوشب في تعيين المستثنى منه مشهورة، وقد أخرجها أحمد في المسند (٣/٩٣، ٦٤)، وأبو يعلى في مسنده (٢/٤٨٩).

وقال الحافظ في الفتح (٦٥/٣): وشهر حسن الحديث وإن كان فيه بعض الضعف. أهـ.

وذكره الذهبي فيمن تُكلم فيه وهو موثق (ص١٠٠)، فهو ممن يحسن حديثه عند الذهبي أيضاً.

فهذا حافظان جبلان في الحفظ ومعرفة الرجال ذهبا إلى تحسين حديث شهر بن حوشب، وقد تتابع على تقدير المستثنى بالمساجد شراح الحديث. وقال الكرماني في شرحه على البخاري (١٢/٧) عند قوله «إلا إلى ثلاثة مساجد».

والاستثناء مفرغ، فإن قلت: فتقدير الكلام لا تشدُّ الرحال إلى موضع أو مكان، فيلزم أن لا يجوز السفر إلى مكان غير المستثنى حتى لا يجوز السفر لزيارة إبراهيم الخليل عليه السلام ونحوه، لأن المستثنى منه في المفرغ لابد أن يقدر أعم العام، قلت: المراد بأعم العام ما يناسب المستثنى نوعاً ووصفاً كما إذا قلت: ما رأيت إلا زيداً كان تقديره: ما رأيت رجلاً أو أحداً إلا زيداً، لا ما رأيت شيئاً أو حيواناً إلا زيداً، فها هنا تقديره: لا تشد إلى مسجد إلا إلى ثلاثة. وقد وقع في هذه المسألة في عصرنا مناظرات كثيرة في البلاد الشامية، وصنف فيها رسائل من الطرفين لسنا الآن لبيانها. أهـ.

وقال العلاّمة البدر العيني الحنفي (٢٧٦/٦):

وشدُ الرحل كناية عن السفر لأنه لازم للسفر، والاستثناءُ مُفرغ، فتقدير الكلام: لا تشد الرحال إلى موضع أو مكان، فإن قيل: فعلى هذا يلزم أن لا يجوز السفر إلى ما كان غير المستنى حتى لا يجوز السفر لزيارة إبراهيم الخليل صلوات الله تعالى وسلامه عليه ونحوه، لأن المستثنى منه في المفرغ لابد أن يقدر أعم العام. وأجيب بأن المراد بأعم العام ما يناسب المستثنى نوعاً ووصفاً

كما إذا قلت: ما رأيت إلا زيداً كان تقديره: ما رأيت رجلاً أو أحداً إلا زيداً، لا ما رأيت شيئاً أو حيواناً إلا زيداً، فها هنا تقديره لا تشد إلى مسجد إلا إلى ثلاثة. اهـ.

وفي فتح الباري (٦٦/٣):

قال بعض المحققين: قوله: « إلا إلى ثلاثة مساجد» المستثنى منه محذوف، فإما أن يقدر عاماً فيصير: لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلا إلى الثلاثة أو أخص من ذلك، لا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها فتعين الثاني، والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة وهو: لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة إلا إلى الثلاثة، فيبطل بذلك قول من منع شدَّ الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين والله أعلم. أهـ.

قال الإمام مالك: «إنَّ البقعة التي فيها جسد النبي ﷺ أفضل من كل شيء حتى الكرسي والعرش ثم الكعبة ثم المسجد النبوي ثم المسجد الحرام ثم مكة» .

وقد حكى القاضي عياض الإجماع على أنها أفضل بقاع الأرض كما في الشفا.

وحكاه قبله أبو الوليد الباجي وغيره وبعده القرافي وغيره من المالكية ويُطلب تفصيل ذلك من معارف السنن شرح سنن الترمذي للسيد العلاَّمةُ المحقق محمد يوسف البنوري الحنفي (٣٢٣/٣).

لذا فالسفر إلى المكان الأفضل بالإجماع (وهو القبر النبوي الشريف) أولى وأحرى من السفر إلى المساجد الثلاثة بدلالة النص، والله الموفق، والهادي للصواب.

الوجه الثاني: (علة السفر).

قال شيخ الإسلام التقي السبُّكي في شِفاء السَّقام (ص١١٨):

اعلم أن هذا الاستثناء مفرغ تقديره لا تشد الرحال إلى مسجد إلا إلى المساجد الثلاثة، أو لا تشد الرحال إلى مكان إلا إلى المساجد الثلاثة ولابد من أحد هذين التقديرين ليكون المستثنى مندرجاً تحت المستثنى منه والتقدير الأول أولى لأنه جنس قريب. أهـ.

وعلى اعتبار عموم الحديث أي لا تشد الرحال إلى مكان إلا إلى المساجد الثلاثة، أي العموم الذي يذهب إليه ابن تيمية، قال التقي السبُّكي في (شِفاء السَّقام) ما ملخصه (ص١١٦ فما بعدها)[1]:

«السفر فيه أمران، الأول: باعث عليه كطلب العلم وزيارة الوالدين وما أشبه ذلك، وهو مشروع بالاتفاق.

الثاني: المكان الذي هو نهاية السفر كالسفر إلى مكة أو المدينة أو بيت المقدس ويشمله الحديث والمسافر لزيارة النبي ﷺ لم يدخل في الحديث لأنه لم يسافر لتعظيم البقعة، وإنما سافر لزيارة من فيها فإنه لم يدخل في الحديث قطعاً، وإنما يدخل في النوع الأول المشروع. فالنهي عن السفر مشروط بأمرين:

أحدهما: أن يكون غايته المساجد الثلاثة.

والثاني: أن تكون علته تعظيم البقعة.

والسفر لزيارة النبي ﷺ غايته أحد المساجد الثلاثة وعلته تعظيم ساكن البقعة لا البقعة، فكيف يقال بالنهي عنه؟ بل أقول: إنَّ للسفر المطلوب سببين **أحدهما**: ما يكون غايته أحد المساجد الثلاثة، **والثاني**: ما يكون لعبادة وإن كان إلى غيرها.

---

(١) ط. دار الجيل- بيروت، ط الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

والسفر لزيارة المصطفى ﷺ اجتمع فيه الأمران، فهو في الدرجة العليا من الطلب ودونه ما وجد في أحد أمرين، وإن كان السفر الذي غايته أحد الأماكن الثلاثة لابد في كونه قربة من قصد صالح، وأما السفر لمكان غير الأماكن الثلاثة لتعظيم ذلك المكان، فهو الذي ورد فيه الحديث، ولهذا جاء عن بعض التابعين أنه قال: قلت لابن عمر إني أريد أن آتي الطور. قال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد رسول الله ﷺ، ومسجد الأقصى. ودع الطور فلا تأته. أهـ.

والحاصل أن الحديث إن حُمِلَ على عمومه وفق مراد ابن تيمية فهو لا يَردُ على الزيارة مطلقاً، لأن المسافر للزيارة مسافر لساكن البقعة كالعالم والقريب وهذا جائز إجماعاً، أما الحديث فوارد في الأماكن فقط، فتدبر تستفد، ولله در التَّقِيِّ السبُّكي.

الوجه الثالث: (دلالة النهي ليست على التحريم)

إنَّ النهي هنا ليس على وجه واحد، وهو التحريم، فقد اختلفوا على أي وجه هو؟

قال ابن بَطَّال: هذا الحديث، إنَّما هو عند العلماء فيمن نذر على نفسه الصلاة في مسجد من سائر المساجد غير المساجد الثلاثة. أهـ.

وقال الإمام أبو سليمان الخَطَّابي في معالم السنن:

هذا « أي جديث لا تشد الرحال ... » في النذر، ينذر الإنسان أن يصلي في بعض المساجد فإن شاء وَفَّى به، وإن شاء صلى في غيره إلا أن يكون نَذَرَ الصلاة في واحد من هذه المساجد، فإن الوفاء يلزمُه بما نذره فيها، وإنَّما خصَّ هذه المساجد بذلك لأنها مساجد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وقد أُمرنا بالاقتداء بهم. أهـ. (معالم السنن ٢/٤٤٣).

ومن المقرر أن النذر لا يجب إلا في طاعة، فمعنى الحديث يجب الوفاء، لمن نذر إتيان أحد المساجد الثلاثة للصلاة فيها، فمن نذر إتيان غير هذه المساجد لا يجب عليه الوفاء بالنذر.

قال الإمام النووي: لا خلاف في ذلك إلا ما روى عن الليث أنه قال: يجب الوفاء به، وعن الحنابلة رواية: يلزمه كفارة يمين، ولا ينعقد نذره، وعن المالكية رواية: إذا تعلقت به عبادة تختص به كرباط لزمه، وإلا فلا، وذُكِرَ عن محمد بن مسلمة المالكي في مسجد قباء لأن النبي ﷺ كان يأتيه كل سبت. اهـ المجموع (٨/٣٧٧).

قال ابن بطال: وأمَّا مَنْ أراد الصلاة في مساجد الصالحين والتبرك بها متطوعاً بذلك فمباح إنْ قَصدها بإعمال المطي وغيره ولا يتوجه إليه الذي في هذا الحديث. أهـ.

الوفاء بالنذر إلا إليها.

أما غيرها من المساجد فيستوي ثواب الصلاة وقال النووي رحمه الله تعالى في شرح صحيح مسلم:

والصحيح عند أصحابنا وهو الذي اختاره إمام الحرمين والمحققون أنَّه لا يحرم ولا يكره. قالوا: والمراد أن الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى هذه الثلاثة خاصة والله أعلم. (٩/١٠٦).

وقال الشيخ الإمام أبو محمد ابن قدامه المقدسي الحنبلي: فإن سافر لزيارة القبور والمشاهد، فقال ابن عقيل: لايباح له الترخص لأنه منهي عن السفر إليها. قال النبي ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » متفق عليه، والصحيح إباحته وجواز القصر فيه، لأن النبي ﷺ كان يأتي قباء راكباً وماشياً وكان يزور القبورَ وقال: (زوروها تذكركم الآخرة)، وأما قوله عليه

السلام: « لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد)، فيحمل على نفي التفضيل لا على التحريم وليست الفضيلة شرطاً في إباحة القصر، فلا يضر انتفاؤها، (المغني ٢/١٠٣-١٠٤).

ومثله لأبي الفرج ابن قدامة في الشرح الكبير (٢/٩٣).

وقال إمام الحرمين: «والظاهر أنَّه ليس فيه تحريم، ولا كراهة، وبه قال الشيخ أبو علي: ومقصود الحديث تخصيص القربة بقصد المساجد الثلاثة» أهـ (الروضة: ٣/٣٢٤)، و(المجموع: ٨/٣٧٥).

وصفوةُ ما سبق: أنَّ الصلاة في هذه المساجد تختص بطاعة زائدة على ما سواها من المساجد، ولما كان الأمر كذلك فلا يصحُ فيها، والسفر إليها سفر مباح يجوز قصر الصلاة فيه.

وروى أحمد في المسند (٦/٣٩٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٢/٣١٠) من حديث مَرثد بن عبد الله اليزني عن أبي بَصرةَ الغفَّاري قال: لقيت أبا هريرة وهو يسير إلى مسجد الطور ليصلي فيه قال: فقلت له: لو أدركتك قبل أن ترتحل ما ارتحلت قال: فقال و لم؟ قال: فقلت: إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي).

فأبو هريرة لقى أبا بَصرة رضي الله عنهما، وكان أبو هريرة يسير إلى مسجد الطور، ولما أعلمه أبو بصرة بنصِّ الحديث لم يرجع أبو هريرة.

ولو كان أبو هريرة قد فهم من الحديث التحريم لرجع ولكنَّه لم يفعل، بل لم يخرج أصلاً لأنه من رواة هذا الحديث، فدلَّ فعلُهُ على أن النهي الذي في الحديث لا يفيد التحريم عند أبي هريرة رضي الله عنه.

الفصل التاسع
التبرك والتوسل بالأنبياء والصالحين
في أفعال الرسول والصحابة والعلماء والمحدثين والحفاظ
ممن ثبت عنه التبرك والتوسل بالأموات

أخي القارئ بعد أن رأيت صحيح النقول من الكتاب والسنة موثقة مخرجة، ورأيت أقوال الفقهاء في كتب الفقه ومشاهيرهم من كل مذهب من المذاهب الأربعة، وما قام عليه فهمهم من شبه إجماع على مشروعية التوسل، فإنني أنقل لك في هذا الباب مقتطف من أفعال وأقوال كبار العلماء والحفاظ وصالحي الأمة وعلى رأسهم عمل سيد المرسلين الصادق الأمين بما لا يدع مجال للشك أو الظن، فطابقت أقوالهم أفعالهم وهذا بعضه للاحتجاج والآخر للاستئناس. وبيان أن أفعال الأمة المعصومة مطابقة لأفعاله ﷺ وأفعال صحابته. فمن قال بتحريم التوسل بعد هذا فقد أعظم الفرية

١- مما فعله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم

أ- روى الفاكهي في أخبار مكة بسنده عن عبيد الله بن أبي يزيد قال أن عبدالرحمن بن طارق بن علقمة أخبره عن أمه (أن النبي ﷺ كان إذا جاء مكاناً من دار يعلى - نسيه عبيد الله- استقبل البيت فدعا وكنت أنا انصرف وعبد الله بن كثير حتى إذا جئنا ذلك المكان استقبل البيت ودعا وقال: بلغني: في هذا المقام نبي)[1].

---

(١) رواه الفاكهي في أخبار مكة (٢٩٧/٣) رقم٢١٢٤ واللفظ له وذكره عبدالرزاق في مصنفه

ويدل هذا الحديث على توسل النبي ﷺ إلى الله ببركة الأنبياء المدفونين في الحجر.

ب- روى النسائي في (المجتبي) حديث الإسراء والمعراج **بسند صحيح** عن أنس بن مالك ﷺ في كتاب الصلاة باب فرض الصلاة وفيه:« فسرت فقال: انزل فصل فصليت، فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بطيبة وإليها المهاجرة. ثم قال انزل فصل فصليت، فقال: أتدري أين صليت؟ صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى، ثم قال: انزل فصل فصليت أتدري أين صليت؟ **صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام...** » إلى آخر الحديث. يقول الإمام السندي في الحاشية: « **صليت بطور سيناء وهذا أصل كبير في تتبع آثار الصالحين والتبرك بها والعبادة فيها** » أ.هـ ج١، ص٢٢٢.

وروى الحافظ الثقة محمد بن إسماعيل الترمذي حديث الإسراء عن شداد بن أوس ﷺ وذكر فيه نزول النبي ﷺ للصلاة في المواضع الثلاثة ورواه عنه الإمام البيهقي بطريقين وقال إن **إسناده صحيح** وذكر له شواهد كثيرة تؤيده انظر دلائل النبوة للبيهقي، وأما ما اعترض به ابن كثير في تفسير سورة الإسراء وزعم وجود نكارة في نزول النبي عليه السلام وصلاته في بيت لحم

(٧٧/٥) رقم ٩٠٥٥ عن ابن جريج بلفظفي هذا المكان شيء وهو تصحيف لاتضاح ذكر في أخبار مكة وصوابها نبي والروايات الأخرى تدل على ذلك

ورواه ابونعيم بسند صحيح في معرفة الصحابة (٣٥٣٢/٦) والبغوي في معجم الصحابة وأخرجه أحمد في المسند (٤٣٦/٦) ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال (١٩١/١٧) والبخاري في التاريخ الكبير (٢٩٨/٥) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٨٧/٦) فالحديث مروي من طرق متعددة والمعنى واحد فكل هذه الطرق وغيرها تدل على صحة الحديث ولا عبرة بمن يشاغب فيما غير فائدة

فهو خطأ غير صحيح، لسببين:

الأول: أن النكارة تطلق أحيانا ويراد بها مطلق التفرد مع أنها ذكرت في رواية أنس ﷺ عند النسائي.

الثاني: أن النكارة تطلق ويقصد بها مخالفة الحديث الضعيف لما ورد في الحديث الصحيح وهذا أيضاً غير واقع هنا فالحديثان متطابقان وكلاهما بمفرده صحيح بحمد الله فنحن نقول مثل الإمام السندي: هذا أصل كبير في تتبع آثار الصالحين والتبرك بها والعبادة فيها.

ج- أرشد رسول الله ﷺ نبهاء أصحابه إلى المواضع الفاضلة.

فقال لهم فيما أخرجه البزار: « في مسجد الخيف قُبِرَ سبعون نبيا »

انظر مختصر زوائد مسند البزار (٤٧٦/١)، باب فضل مسجد الخيف وجبل ثور. حديث رقم (٨١٣).

قال ابن حجر عقبه: قلت هو إسناد صحيح.

وقال فيما أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الحج باب جامع الحج والنسائي في كتاب الحج باب ما ذكر في منى (٢٤٨/٥-٢٤٩) عن محمد بن عمران الأنصاري عن أبيه قال: عدل إليّ عبد الله بن عمر وأنا نازل تحت سرحة بطريق مكة فقال:

ما أنزلك تحت هذه الشجرة؟ فقلت أنزلني ظلها، قال عبد الله: فقال رسول الله ﷺ : « إذا كنت بين الأخشبين من منىً ونفخ بيده نحو المشرق فإن هناك واديا يقال له السُّرَرُ به سرحة سرَّ تحتها سبعون نبيا».

وإسناد هذا الحديث صحيح، فمالك لا يروي إلا عمن هو ثقة عنده (انظر مقدمة صحيح مسلم) وللحديث متابعة مختصرة عند أبي يعلى في مسنده.

٢- صلاة أسامة بن زيد حبُّ رسول الله ﷺ ودعاؤه عند القبر النبوي المكرم:

أ- قال ابن حبان في صحيحه:

أخبرنا أبو يعلى، حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، قال: سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن صالح بن كيسان، عن عبيد الله بن عبد الله قال:

رَأَيْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ **يُصَلِّي عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ** - ﷺ -، فَخَرَجَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ فَقَالَ: تُصَلِّي إِلَى قَبْرِهِ ؟!.

فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّهُ. فَقَالَ لَهُ قَوْلاً قَبِيحاً، ثُمَّ أَدْبَرَ، فَانْصَرَفَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَقَالَ لَهُ: يَا مَرْوَانُ، إِنَّكَ آذَيْتَنِي، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله - ﷺ - يَقُولُ: «**إن الله يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْمُتَفَحِّشَ**»، وَإِنَّكَ فَاحِشٌ مُتَفَحِّشٌ. أ.هـ.

انظر (موارد الظمآن) ٢٧٠/٦ بتحقيق حسين سليم أسد، وعبده علي كوش، برقم (١٩٧٤) باب ما جاء في الفحش يقول المحققان: إسناده صحيح فقد صرح محمد بن إسحاق بالتحديث وهو في الإحسان ٤٨١/٧.

قلت: الإسناد مسلسل بالأئمة الحفاظ.

ب- أخرجه الطبراني في الكبير ١٦٦/١ برقم (٤٠٥) من طريق معاذ بن المثنى، حدثنا علي بن المديني، حدثنا وهب بن جرير بن حازم، بهذا الإسناد. ولفظه: « **رأيت أسامة بن زيد عند حجرة عائشة يدعو**، فجاء مروان فأسمعه كلاماً، فقال أسامة: إني سمعت رسول الله ﷺ -يقول: «إن الله عز وجل يبغض الفاحش البذيء ».

قال العراقي – هامش إحياء علوم الدين ١٢٢/٣-: « وله- يعني لابن أبي الدنيا- وللطبراني من حديث أسامة بن زيد ... **وإسناده جيد** » .

وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٦٤/٨-٦٥ وقال: « رواه الطبراني، **ورجاله ثقات** » .

وهناك طريقين آخرين أشار إليهما محققا موارد الظمآن: أولهما عند البخاري في (التاريخ) والطبراني في الكبير والخطيب في (تاريخ بغداد) وإسناده جيد.

والثاني في مسند الإمام أحمد ٢٠٢/٥ بإسناد ضعيف.

والحاصل أن الصلاة والدعاء عند القبر النبوي المكرم وقبور الأنبياء والصالحين تبركا بصاحب القبر وتوسلا إلى الله به ليس فيه أية مخالفة شرعية بل هي سنة صحابية –أرشدهم إليها رسول الله ﷺ كما سبقت الإشارة إليه، والباعث فيها محبتنا لصاحب القبر مع اعتقادنا فضله ومنزلته عند الله.

وستأتي نماذج أرى لذلك.

٣- صلاة السيدة فاطمة رضي الله عنها عند قبر عمها حمزة رضي الله عنه

روى أبو عبد الله الحاكم في المستدرك ٣٧/١ط الهندية أو ٥٣٣/١ط. العلمية حديث رقم ١٣٢/١٣٩٦ من طريق سليمان بن داود عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه: « أن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكى عنده » .

ثم قال الحاكم عقبه: « هذا الحديث رواته عن آخرهم ثقات ... » .

ولا التفات إلى ما ذكره الذهبي تعليقا على الحديث بأنه منكر أو بأن أحد الرواة (سليمان بن داود) متكلم فيه، نقلا عن الأزدي لسببين:

الأول: أن الجرح الذي ساقه غير مفسّر لذا فهو مردود خاصة وأن ابن حبان والحاكم قد نصّا على توثيقه وروى عنه جمع من الرواة.

الثاني: أن الأزدي نفسه ضعيف فكيف يقبل قوله في تضعيف الثقات ونص على ذلك الذهبي في حالات مشابهة عدة مرات في نفس الكتاب (المستدرك)!

فكلام الذهبي مردود عليه بغير شك والحديث بحمد الله صحيح سنداً ومتنا وأعاد الحاكم ذكره في موضع آخر من المستدرك بنحوه.

وهذا الحديث يماثل ما سبق ذكره عن أسامة بن زيد ﷺ .

٤- أبو أيوب الأنصاري والقبر النبوي المكرم

روى الإمام أحمد في المسند (٤٢٢/٥) عن داود ابن أبي صالح قال: «أقبل مروان يوما فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر فقال: أتدري ما تصنع؟ فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب فقال: نعم، جئت رسول الله ﷺ و لم آت الحجر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ولكن أبكوا عليه إذا وليه غير أهله » .

وأخرج الحاكم في مستدركه هذا الخبر بهذا الإسناد في كتاب (الفتن والملاحم) ٥١٥/٤ وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

وروى هذا الخبر أيضاً أبو الحسين يحيى بن الحسين بن جعفر في (أخبار المدينة) بسنده عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال: أقبل مروان بن الحكم فإذا رجل ملتزم القبر، فأخذ مروان برقبته ثم قال: هل تدري ما تصنع؟ فأقبل عليه فقال: نعم إني لم آت الحجر و لم آت اللّبن إنما جئت رسول الله ﷺ ... وذكر الحديث.

قال المطلب: وذلك الرجل: أبو أيوب الأنصاري.

ورواه الطبراني في الكبير والأوسط بدون القصة.

وقد ذهب أربعة من كبار الحفاظ إلى صحة هذا الحديث هم:

الحاكم والذهبي والهيثمي والسيوطي وحسّنه الحافظ المناوي والحافظ أبو الفتح المراغي المدني.

يقول العلامة داود النقشبندي في كتابه (صلح الإخوان): « ويمكن أن الإمام أحمد أخذ جواز تقبيل القبر مما رواه في مسنده عن أبي أيوب الأنصاري ... » وأشار إلى الحديث ثم قال: « قال الشيخ منصور البهوتي الحنبلي في حاشيته (الإقناع): قال إبراهيم الحربي: (يستحب تقبيل حجرة النبي ﷺ والله أعلم) انتهى، أقول: وهذا يؤيد ما تقدم عن الإمام أحمد فإن إبراهيم الحربي من أصحاب أحمد رضي الله عنه » أ.هـ[1].

٥- سفر سيدنا بلال لزيارة رسول الله ﷺ وتمريغ وجهه على قبره:

روى ذلك ابن عساكر في تاريخه في موضعين الأول: في ترجمة بلال رضي الله عنه والثاني في ترجمة إبراهيم بن محمد بن سليمان بن بلال بن أبي الدرداء بإسنادين إلى محمد بن الفيض الغساني عنه وفيه:

« ... فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما فجعل يضمهما ويقبلهما ... » .

نقل هذا الخبر عن ابن عساكر وذكر إسناده الإمام الحافظ تقي الدين السبكي في (شفاء السقام) ونص على أن إسناده جيد.

يقول العلامة إبراهيم السمنودي المنصوري في كتابه (سعادة الدراين):

---

(١) (صلح الإخوان من أهل الإيمان) ص٨٢.

«وقد جاء بسند جيد عند ابن عساكر وغيره كما في المواهب وخلاصة الوفاء وغيرهما أن بلال بن رباح رضي الله تعالى عنه ... » وذكر القصة بتمامها ثم علق في الهامش على سند القصة فقال: « تبعت في ذكر هذه القصة العلامة ابن حجر المكي حيث ذكرها في كتابه (الجوهر المنظم) تبعا للأئمة المذكورين وإن قال ملا قارى في تذكرة موضوعاته ما نصه: (وفي الذيل: أن قصة رحيل بلال ثم رجوعه إلى المدينة بعد رؤيته عليه الصلاة والسلام في المنام وأذانه بها وارتجاج أهل المدينة لا أصل له وهي بينة الوضع. أ.هـ وكأن ابن حجر المكي ما اطلع عليه وذكره في كتابه الموضوع للزيارة) أ.هـ كلام الملا كتبه مؤلفه. ثم رأيت في السعي المشكور لعبد الحي اللكنوي الهندي أن الذي أوقع ابن الجوزي في الحكم بوضع الحديث المذكور استناده في غالبه بضعف راويه الذي يرمي بالكذب مثلا غافلاً عن مجيئه من وجه آخر وربما يكون اعتماده في التفرد قوله غيره ممن يكون كلامه فيه محمولاً على النسبي. ثم أطال في الرد على الحكم بوضعه وأيد أن سنده جيد فراجعه إن شئت ولا تقلد القارئ في تحامله وتعصبه على شيخه الإمام ابن حجر المكي أ.هـ لمؤلفه » أ.هـ (سعادة الدارين) ج١ ص٩٩.

٦- توسل الإمام الشافعي بالإمام أبي حنيفة عند قبره:

أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده أخبرنا القاضي أبو عبدالله الحسين بن علي بن محمد الصيمري قال أنبأنا عمر بن إبراهيم المقري قال أنبأنا مكرم بن أحمد قال انبأنا عمر بن إسحاق بن إبراهيم قال أنبأنا علي بن ميمون رحمه الله تعالى انه قال:

سمعت الشافعي ﷺ يقول:

إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره في كل يوم -يعني زائرا- فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله الحاجة عنده فما يبعد عني حتى تقضى[1].

٧- توسل الإمام الخلال شيخ الحنابلة بقبر موسى الكاظم:

أخرج الخطيب عن أحمد بن جعفر القطيعي قال سمعت الحسن ابن ابراهيم أبا علي الخلال -وهو شيخ الحنابلة في وقته- يقول:

ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر -يعني الكاظم عليه السلام- فتوسلت به إلا سهل الله لي ما احب)[2].

٨- توسل الإمام أحمد والحافظ أبي حاتم الرازي وغيرهما من الأئمة بسلسلة آل البيت عليهم السلام

علي بن موسى الرضا عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه الصادق جعفر بن محمد عن أبيه الباقر محمد بن علي عن أبيه السجاد علي ابن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب عليهم السلام .

قال أحمد بن علي الأنصاري أبو علي الأصبهاني قال لي أحمد بن حنبل

---

(١) تاريخ بغداد (١/١٢٣) وهذا الحديث رجاله ثقات عدا عمر بن إسحاق بن إبراهيم وهو مستور ولكنه يقع بين ثقتين وقال اللكنوي في الرفع والتكميل: أن المستور إذا وقع بين ثقتين فهو ثقة . فالرواية صحيحة لا مراء فيها.

ولا عبرة بمن ذهب إلى إنكار هذا الخبر فكلامهم مبني على أوهام ليس لها قيمة أمام النصوص.

(٢) تاريخ بغداد (١/١٢)

إن قرأت هذا الإسناد على مجنون برئ من جنونه[1].

وقال الحافظ أبو نعيم الأصفهاني: وكان بعض سلفنا من المحدثين إذا روى هذا الإسناد قال: « لو قرئ هذا الإسناد على مجنون لأفاق» [2].

فقول الحافظ أبي نعيم: « وكان بعض سلفنا من المحدثين ... » أفاد وقوع التوسل بهذا السلسلة من جماعة، منهم: أحمد بن حنبل، وأبو حاتم الرازي. وفعل التوسل بحضرة إسحاق بن راهويه وغيره من السادة الثقات بدون نكير .

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر أبو العباس الخزاعي: كنت واقفاً على رأس أبي وعنده أحمد بن محمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو الصلت الهروي، فقال أبي: ليحدثني كل رجل منكم بحديث. فقال أبو الصلت: حدثني علي بن موسى الرضا، وكان والله رضاً كما سمي ...

(ثم ذكر السلسلة المتقدمة). فقال بعضهم: ما هذا الإسناد؟ فقال له أبي: هذا سعوط المجانين ، إذا سعط به المجنون برأ[3].

---

(١) تاريخ أصبهان لأبي نعيم (١/١٣٨) وأحمد بن علي الأنصاري قال فيه الذهبي في الميزان ١/١٢٠) : (واهٍ) ووهّاه الحاكم كما في لسان الميزان (١ /٣٣٥) ، ولكن هذا القول سمعه أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو حاتم الرازي ، ولم ينكروا ذلك ، وسيأتي نصه عنهم وعن غيرهم لاحقاً مما يؤصل ثبوت القصة.

(٢) حلية الأولياء (٣/١٩١)

(٣) أخرجه الحاكم في تاريخ نيسابور (كما في طبقات الشافعية للسبكي ١/ ١١٩-١٢٠).
ومن طريقه الخطيب في التاريخ (٥/ ٤١٨ -- ٤١٩) قال : حدثني علي بن محمد المذكر حدثنا محمد بن علي بن حسين الفقيه الرازي حدثنا محمد بن معقل القرميسيني عن محمد بن عبد الله بن طاهر به .
هكذا وقع في مطبوع طبقات الشافعية وتاريخ بغداد (علي بن محمد) فلعله غير الذي وجدناه في

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي: كنت مع أبي بالشام فرأيت رجلاً مصروعاً فذكرت هذا الإسناد، فقلت: أجرب بهذا، فقرات عليه هذا الإسناد فقام الرجل فنفض ثيابه ومر[1].

وقال أبو عبد الله محمد بن عبيد الله بن رشيد الكاتب[2] وقد سئل عن هذا الإسناد: سعوط الشَيْلَشَا الذي إذا سعط به المجنون برأ وصح. رواه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي[3]: أخبرنا هلال بن عبد الله بن محمد الطيبي[4] مؤدبي- حدثنا إسماعيل بن محمد بن زنجي الكاتب[5].

تهذيب الكمال ١ / خلال ترجمة أحمد بن الخليل البغدادي: محمد بن علي ابن عمر المذكر النيسابوري أحد الضعفاء الكذابين المعروفين بسرقة الأحاديث أهـ. وطعن به تلميذه الحاكم انظر لسان الميزان لابن حجر٥/٢٩٢ .

(١) رواه الرافعي في التدوين في أخبار قزوين (٤٨٢/٣) من طريق علي بن محمد بن مهرويه (وهو صدوق، ثم حول الرافعي السند بدون أداة التحويل فقال: قال أبو حاتم محمد بن إدريس الرازي قال: أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروي: « لو قرئ هذا الإسناد على المجنون لأفاق » وعن عبد الرحمن ابن أبي حاتم الرازي: كنت مع أبي بالشام فرأيت رجلاً مصروعاً فذكرت هذا الإسناد، فقلت: أجرب بهذا فقرأت عليه هذا الإسناد فقام الرجل فنفض ثيابه ومر. وهذا التحويل وقع من وسط السند ، وهو مستعمل لدى المحدثين ، وقد ثبت سماع ابن مهرويه من أبي حاتم الرازي ، كما في التدوين للرافعي (٣ /٤١٧) .

(٢) ثقة . تاريخ بغداد (٢ /٣٣١) .

(٣) في تاريخ بغداد (١٠ /٣٤٤) .

(٤) سماعه صحيح . (تاريخ بغداد ٤ / ٧٥) .

(٥) قال الأزهري: لا يساوي شيئاً (لسان الميزان ٤٣٤/١) يعني في الحديث، وأما في القصص والأدب فالظاهر أنه حجة، يجد ذلك الناظر في تاريخ الخطيب وموضح أوهام الجمع والتفريق، وحقق هذه المسالة في هذا العصر العلامة السيد الشيخ الحافظ أحمد بن الصديق

٩- استشفاء الحافظ عبدالغني المقدسي الدمشقي الحنبلي، وتوسله بقبر الأمام أحمد بن حنبل

وقال الحافظ عبدالغني المقدسي الدمشقي الحنبلي:

(خرج في عضدي شيء يشبه الدمل وكان يبرأ ثم يعود ودام بذلك زماناً طويلا فسافرت إلى أصبهان وعدت إلى بغداد وهو بهذه الصفة فمضيت إلى قبر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه ومسحت به القبر فبرأ ولم يعد)[1].

١٠- توسل أئمة السنة بروح الولي معروف الكرخي

وأخرج الخطيب أن الحافظ أبا عبد الله المحاملي - أحد أئمة الحديث أيضاً - قال :

« أعرف قبر معروف الكرخي منذ سبعين سنة، وما قصده مهموم إلا

الغماري في فتح الملك العلي ص٧ وجاء بالقول الفصل في هذه المسألة:

فقال عن الراوي المضعف -اسماعيل بن محمد بن زنجي: عدل ثقة صدوق معروف بطلب الحديث والاعتناء به. ووثقه عبدالله بن احمد بن حنبل وهذا يدل على انه ثقة عند أبيه. ورواه غير ابن زنجي فقد قال الخطيب عقبه: قلت: روى غير ابن زنجي هذا الخبر عن ابن رشيد فذكر في آخره عن أبي أحمد بن طاهر أن إسحاق بن راهوية سأل أبي الصلت عن إسناد الحديث. وذاك أشبه ويحتمل أن يكون ابن راهويه الذي ذكر ابن رشيد كونه في مجلس ابن الفرات: محمد بن إسحاق بن راهويه .

(١) نظر الحكايات المنثورة للحافظ ضياء الدين المقدسي مخطوط بالظاهرية بخط الضياء برقم ٣٨٣٤ الورقة ١١٢ اللوحة اليمنى السطر (١٠) الجزء الخامس ذكر ذلك أديب الكمداني في تحقيقه لتهذيب النفس للمتحدث يوسف بن عبدالهادي المقدسي ص٨٣.

فرج الله همه »[1].

وأخرج أيضاً أن الإمام عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد الزهري قال : سمعت أبي يقول : قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج .

ويقال : إن من يقرأ عنده مائة مرة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وسأل الله تعالى ما يريد قضى الله له حاجته[2].

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١ / ١٢٣) عن شيخه محمد بن علي بن عبد الله الصوري ، قال عنه الحافظ الذهبي في السير (١٧ / ٦٢٧) الإمام الحافظ البارع الأوحد الحجة أهـ. وأثنى عليه الخطيب ثناء عجيباً لقوة حفظه وضبطه (تاريخ بغداد ٣ /١٠٣) ورواه الصوري عن محمد بن أحمد بن جميع، قال فيه الذهبي في السير (١٥٢/١٧) الشيخ العالم الصالح المسند المحدث الرحال ثم نقل عن الصوري قال: وكان شيخاً صالحاً ثقة متقناً، ووثقه الخطيب وغيره. والمحاملي قائل هذا الكلام هو الحسين بن إسماعيل قال عنه الذهبي في السير (١٥/ ٢٥٨): القاضي الإمام العلامة المحدث الثقة مسند الوقت ، ثم نقل عن محمد ابن الإسكاف قال: رأيت في النوم كان قائلاً يقول : أن الله ليدفع عن أهل بغداد البلاء بالمحاملي أهـ .

وقد روى رؤية الإسكاف الخطيب في التاريخ (٢٢/٨)، ولفظه : كنت ببغداد محتاراً في أمر أبي عبدالله المحاملي وعبد الرحمن بن أبي حاتم ، فكنت أنا أفضل ابن أبي حاتم على المحاملي فرأيت تلك الليلة فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول لي : استغفر في أمر المحاملي فإن الله ليدفع البلاء عن أهل بغداد به ، فلا تستصغر أمره أهـ. وابن أبي حاتم كان من الأبدال كما في السير للذهبي إذا كيف يكون مقام المحاملي ؟؟؟

اللهم انفعنا بالصالحين .

(٢) رواه الخطيب في التاريخ (١٢٢/١ -١٢٣) عن شيخه أبي إسحق البرمكي ، قال عنه في التاريخ (١٣٩/٦) إبراهيم بن عمر البرمكي كتبنا عنه وكان صدوقاً ديناً فقيهاً على مذهب أحمد بن حنبل، وله حلقه في الفتوى في جامع المنصور أهـ. وقال الذهبي في السير (٦٠٥/١٧) الشيخ الإمام المفتي بقية المسندين ... برع في المذهب (الحنبلي) وكان ذا زهد

وأخرج الخطيب البغدادي، وابن عساكر[1] أن أحمد بن العباس قال: «خرجت من بغداد، فاستقبلني رجل عليه أثر العبادة، فقال لي: من أين خرجت؟ قلت: من بغداد، هربت منها لما رأيت فيها من الفساد، خفت أن يخسف بأهلها، قال: ارجع ولاتخف، فإن فيها قبور أربعة من أولياء الله، هم حصن لهم من جيمع البلايا، قلت: من هم؟ قال: أحمد بن حنبل. ومعروف الكرخي، وبشر الحافي، ومنصور بن عمار، فرجعت وزرت القبور، ولم أخرج تلك السنة ».

وقال ابن العماد في « شذرات الذهب» : «وأهل بغداد يستسقون بقبره (أي بقبر معروف الكرخي)، ويسمونه ترياقاً مجرباً. وقال مرة لتلميذه

وصلاح ومعرفة تامة بالفرائض، ورواه البرمكي عن أبي الفضل عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد الزهري، قال المحدث الثقة عبد العزيز بن علي الأزجي : شيخ رضي مجاب الدعوة وقال الأزهري والبرقاني والدار قطني والخطيب وغيرهم: ثقة. وقال الذهبي: الشيخ العالم الثقة العابد مسند العراق. (تاريخ بغداد ١٠/ ٣٦٨ –٣٦٩) والسير (١٦/٣٩٢- ٣٩٣) وأبوه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن سعد الزهري قال فيه الخطيب في التاريخ (١٠/٢٨٩): كان ثقة. ثم نقل عن أبي بكر بن مجاهد أن عبد الرحمن الزهري دخل عليه وخلفه أولاده فقال: أنا أشبّه أبا محمد ببعض الصحابة وخلفه أتباعه أهـ. فهذا السند صحيح مسلسل بالأئمة الثقات.

(١) الخطيب في التاريخ (١/ ١٢١) وابن عساكر في التاريخ (٦٠ /٣٤٤) من طريق أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت عبد الله بن موسى الطلحي: سمعت أحمد بن العباس، ثم ذكره . وأبوبكر الرازي هو محمد بن عبد الله بن عبد العزيز، قال فيه ابن حجر في اللسان (٥ /٢٣٠) : متهم طعن فيه الحاكم .

السري السقطي: إذا كانت لك إلى الله حاجة فأقسم عليه بي »[1]. أي يقسم فيقول: اللهم إني أقسم عليك بمعروف الكرخي، أو بحق معروف، أو بجاه معروف، أو بمكانة ومقام معروف .

١١- سقيا الله تعالى لمن استسقى بالإمام البخاري وقصد قبره متوسلاً به:

وقال الإمام الحافظ أبو على الغساني: أخبرنا أبو الفتح نصر ابن الحسن السكتي، السمرقندي- قدم علينا بَلَنْسية عام أربعة وستين وأربع مئة - قال:

قحط المطر عندنا بسمرقند في بعض الأعوام، فاستسقى الناس مراراً، فلم يسقوا، فأتى رجل صالح معروف بالصلاح إلى قاضي سمرقند، فقال له: إني رأيت رأياً أعرضه عليك، قال: أرى أن تخرج ويخرج الناس معك إلى قبر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، وقبره بخَرْتَنْك، ونستسقي عنده، فعسى الله أن يسقينا .

قال: فقال القاضي: نِعْمَ مارأيت، فخرج القاضي والناس معه، واستسقى القاضي بالناس، وبكى الناس عند القبر، وتشفّعوا بصاحبه، فأرسل الله تعالى السماء بماءٍ عظيم غزير، أقام الناس من أجله بخرتنك سبعة أيام أو نحوها، لا يستطيع أحد الوصول إلى سمرقند من كثرة المطر وغزارته، وبين خرتنك وسمرقند نحو ثلاثة أميال[2].

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد (١/٣٦٠)

(٢) القصة في كتاب : « تقييد المهمل » لأبي على الغساني (مخطوط ورقة ٣٤) ونقلها عنه الحافظ الذهبي في السير (١٢/٤٦٩) والعلامة السبكي في طبقات الشافعية (٢/٢٣٤) وقال بعدها: « قلت: وأما الجامع الصحيح وكونه ملجأ للمعضلات ومجرباً لقضاء الحوائج فأمر مشهور، ولو اندفعنا في ذكر تفصيل ذلك وما اتفق فيه لطال الشرح» .

١٢- تعظيم المجاورين للإمام البخاري والتوسل بهم تعظيماً له

وقال محمد بن أحمد بن الفضل البلخي وراق البخاري :

سمعت أبا سعيد الأشج، وخرج إلينا في غداة باردة، وهو يرتعد من البرد، فقال:

أيكون عندكم مثل ذا البرد؟ .

فقلت: مثل ذا يكون في الخريف والربيع، وربما نمسي والنهر جار، فنصبح ونحتاج إلى الفأس في نقب الجمد .

فقال لي: من أي خراسان أنت ؟

قلت: من بخارى، فقال له ابنه: هو من وطن محمد بن إسماعيل، فقال له: إذا قدم عليك من يتوسل به فاعرف له حقه، فإنه إمام[1].

١٣- خروج أمام أهل الحديث ابن خزيمة وجماعة من العلماء إلى قبر الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وتضرعهم عنده

ونقل الإمام ابن حجر العسقلاني عن الإمام الحاكم في (تاريخ نيسابور) قال:

« وسمعت أبا بكر محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى يقول:

خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر ابن خزيمة وعديله أبي علي الثقفي مع جماعة من مشايخنا وهم إذ ذاك متوافرون، إلى زيارة قبر علي بن موسى

وشيخ الغساني: نصر بن الحسن التنكتي محدث ثقة ورع (مترجم في السير ١٩/ ٩٠- ٩١) وقد شهد نصر هذه القصة وعاينها ، فسندها ذهبي مشرق .

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٣٠).

الرضا بطوس، قال فرأيت من تعظيمه -يعني ابن خزيمة- لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرعه عندها ما تحيرنا)[1] ولما سئل قال: دعوني لما أجد في نفسي لعلي الرضا.

١٤- ما رؤى من قبر أبي ايوب الانصارى من البركة :

قال أبو بكر الدينورى: حدثنا أحمد[٢] حدثنا أحمد بن علي المقرىء[٣]، حدثنا الأصمعي[٤]، عن أبيه[٥]، عن جده[١]:

---

(١) تهذيب التهذيب (٣٣٩/٧)

(٢) أحمد بن مروان الدينورى المالكي قال عنه ابن حجر في لسان الميزان (٤٦٩/١) قال مسلمة في الصلة كان- أي أحمد بن مروان -من أروى الناس عن ابن قتيبة وكان ثقة كثير الحديث، وأعتمد توثيقه ابنُ الهمام في فتح القدير (٥٠٦/٢) وكذلك الإمام المقدسي كما في المختارة أنظر (٢٤٨/٧) ب وانظر توثيقه في مقدمة تحقيق كتابه المجالسة لمشهور بن حسن ال سليمان.

(٣) أحمد بن علي المقرىء وثقة الدارقطني وغيره. انظر تاريخ بغداد (٣٠٣/٤) وسير أعلام النبلاء (٤١٨/١٣)، وسؤالات الحاكم للدارقطني رقم (١٣) وطبقات القراء لابن الجزرى(٨٧٠٨٦/١).

(٤) الأصمعي واسمه عبد الملك بن قريب بن عبدالملك قال الحافظ ابن حجر في (التقريب) صدوق سيء (رقم ٤٢٠٥) وقال أبو بكر بن أبي خيثمة عن يحيي بن معين: الأصمعي ثقة (تهذيب الكمال ٣٨٧/١٨).

(٥) أبيه: هو قرب بن عبد الملك بن علي بن أصمع: ذكره البخاري في التاريخ الكبير ٢٠٥/٧، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١٤٩/٧) ترجمة (٨٣١) ، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وقد روى عنه ابنه عبد الملك وعمر بن عاصم الكلابي وهما ثقتان.

وأما قول الأزدي أنه منكر الحديث كما في لسان الميزان (٣٨٩/٣) ففيه نظر من وجوه الوجه الأول: أن الأزدي نفسه متكلَّمٌ فيه. والوجه الثاني: أن هذا الجرح مبهم. والوجه الثالث: أن

« أن أبا ايوب الانصارى وهو خالد بن زيد غزا بلاد الروم فمات بالقسطنطينية فقبر مع سور المدينة وبني عليه فلما أصبحوا أشرف عليهم الروم فقالوا يامعشر العرب قد كان لكم الليلة شأن. فقالوا: مات رجل من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ ووالله لئن نبش لا ضُرِبَ بناقوس في بلاد العرب. قال وكان الروم إذا أمحلوا كشفوا عن قبره فأمطروا[٢] » .

وروى هذا المعنى أيضا عن مجاهد قال مجاهد (كانوا إذا أمحلوا كشفوا عن قبره فمطروا) قال شعبة: سألت الحكم أشهد أبو أيوب صفين؟ قال: لا ولكنه شهد النهروان، وغيره يقول شهد صفين مع علي.

الذهبي لم يذكر قريب بن عبد الملك في الضعفاء مما يدل على أنه لم يعتبر تضعيف الأزدي له، فإذا تقرر هذا الكلام فقريب أقل ما يقال فيه مقارَب الحديث (قريب من الحسن من قسم المقبول) لأنه لم يرد فيه جرحٌ معتبر وروى عنه ثقتان، وعليه فشيخه عبد الملك بن علي بن أصمع مقبول الحديث. وإلا فما سكت عنه ابن أبي حاتم فعند جماعة من المحدثين كالمحب الطبري وابن سعد ثقة. وإذا تقرر ذلك فلا يضر حال عبد الملك بن علي ابن أصمع لأنه مستور الحال والعين وقد روى عنه ثقة فلا تضر جهالته في مثل هذه الآثار التي هي في باب السير. وهو من الطبقة العليا، وهذه الطبقة كما تقدم عن الهيثمي والتهانوي يغتفر عن معرفة حالهم لأنها طبقة مأمونة عن الكذب. والله أعلم.

(١) جده هو عبد الملك بن علي بن أصمع وللرواية شاهد من رواية ابن عبد البر عن مجاهد مثله وبذا ترتقي هذه الرواية إلى درجة الحسن لغيره وأما في باب السير فهي في أعلى درجات القبول وليس كما قال محقق كتاب المجالسة بأن في هذه الرواية انقطاعا لأن عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي لم يرو عن أبيه والصواب أنه قد روى عن أبيه كما نص علي ذلك ابن حجر في لسان الميزان (٥/٥٢٥) وصاحب الإكمال (٧/١٠٩).

(٢) المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر الدينوري (٤/٨٨).

وقال ابن القاسم عن مالك (بلغني عن قبر أبي أيوب أن الروم يستصحون به ويستسقون)[1].

١٥- مغارة الدم في جبل قاسيون بدمشق مظنة استجابة الدعاء:

أخرج ابن عساكر في تاريخه: قال هشام سمعت الوليد ابن مسلم يقول: سمعت سعيد بن عبد العزيز يقول: صعدنا في خلافة هشام بن عبد الملك إلى موضع دم ابن آدم نسأل الله تعالى سقيا فسقانا، فأتانا مطر، فأقمنا في الغار ستة أيام.

وقال ابن مكحول: صعدت مع عمر بن عبد العزيز إلى موضع الدم يسألون الله تعالى سقيا فسقاهم.

وقال: إن معاوية خرج إلى موضع الدم يستسقون الله تعالى سقيا فسقاهم، فلم يبرحوا حتى جرت الأودية.

وروي عن أحمد بن كثير قال: صعدت إلى موضع دم ابن آدم عليه السلام في جبل قاسيون بدمشق نسأل الله تبارك وتعالى الحج فحججت، وسألته الجهاد فجاهدت، وسألته الزيارة والصلاة في بيت المقدس وعسقلان وعكا والرباط في جميع السواحل فرزقت ذلك كله، وسألته يغنيني عن الأسواق والبيع فرزقت ذلك، ولقد رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما وهابيل بن آدم فقلت له: أسألك بحق الواحد الصمد وبحق أبيك آدم النبي عليه الصلاة والسلام هذا دمك؟ فقال: إي

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (١٦٠٦/٤) والطبقات لابن سعد (٤٨٤/٣)، وابن عساكر في تاريخه (٦١/١٦). و(بغية الطلب في تاريخ حلب) لابن أبي جرادة (٣٠٣٨/٧).

والواحد الصمد هذا دمي، جعله الله تعالى آية للناس، وإني دعوت الله عز وجل فقلت: اللهم رب أبي آدم وأمي حواء وهذا النبي المصطفي الأمي اجعل دمي مستغاثاً لكل نبي وصديق، ومن دعا فيه فتجيبه وسألك فتعطيه فاستجاب الله تبارك وتعالى دعائي وجعله طاهراً آمناً، وجعل معه من الملائكة بعدد نجوم السماء يحفظون من أتاه لا يريد إلا الصلاة فيه، فقال رسول الله: قد فعل وزاد كرماً وإحساناً، وإني آتيه كل خميس وصاحباي وهابيل نصلي فيه، فقلت: يارسول الله ادع الله تعالى أن أكون مستجاب الدعوة، وعلمني دعاء لك ملمة وحاجة، فقال لي: افتح فاك ففتحته فتفل فيه فقال لي: رزقت فالزم رزقت فالزم[1] .

---

(١) تاريخ ابن عساكر (٥ /١٧٨)

خاتمة

وبعد أن تجولنا يسيرا في حدائق الشريعة الحنيفية السمحة.

نشم أريج أزهارها ونلثم أوراقها وأغصانها.

مراقبين مسالك أبناء هذه الشريعة في ورودهم على عيونها العذبة الصافية يغترفون منها ويذودون عنها ما يُلْحِق بها الكدر.

نستطيع أن نقرر تماما وبكل وضوح:

أن التوسل أثناء الدعاء بالأنبياء والأولياء الصالحين- أحياء وأمواتا- لا يصدر إلا من مؤمن موحِّد صادق مفعم القلب بحب ربّه سبحانه حتى يفيض هذا الحب على كل من علمه مرضيّا عند ربه ذو قدر وجاه لديه سبحانه.

فيقدمهم بين يديه في دعائه عسى أن تشمله معهم الرحمة والقبول فالمرأ دوْما مع من أحب.

دلنا على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة المعصومة وسلوك جماهيرها من العلماء والعوام جيلا بعد جيل.

وهي كما رأينا مسألة فقهية مكانها في تراث الأمة كتب الفقه والتفسير والحديث وليس العقيدة.

محتويات

الموضوع	الصفحة
فاتحة الرسالة	٥
الفصل الأول: أنواع التوسل	٧
١- التوسل باسم من أسمائه تعالى	٨
٢- التوسل بالعمل المأمور به	٨
٣- التوسل باسم النبي ﷺ	٩
٤- التبرك بآثاره ﷺ	١٠
٥- الأقسام على الله تعالى بالنبي ﷺ أو الصالحين	١١
٦- التوسل بالنبيﷺ أو الصالحين بطلب الدعاء منهم	١٢
٧- التوسل بجاهه أو حرمته ﷺ أو بجاه أو حرمة الأولياء	١٤
٨- التوسل بحقه ﷺ أو بحق أوليائه	١٥
٩- التوسل بذاته ﷺ وبذوات الأنبياء والصالحين	١٦
١٠- طلب الشفاعة من النبي ﷺ	١٧
١١- التوسل بطلب الفعل من الوسيلة وإسناده إليها	١٨
- مثالان هامان لهذا النوع أقرهما الأنبياء	٢٢
الفصل الثاني: لا فرق بين أن يكون الوسيلة حياً أو ميتاً	٢٩
القسم الأول:	٢٩

الموضوع	الصفحة
المثال الأول: توسل سيدنا آدم أبو البشر ﷺ بحق نبينا محمد ﷺ	٣٠
المثال الثاني: توسل أهل الكتاب بالنبي ﷺ قبل وجوده	٣١
القسم الثاني: وهو ما يكون للوسيلة دور في الدعاء والتشفع للمتوسل والتوجه إلى الله في قضاء حاجته ويكون سببا في قضائها	٣٣
- ملامح من حياة البرزخ:	٣٥
- نماذج من السنة توضح اهتمام المقبورين بذويهم وأحبائهم الأحياء وتتبع أخبارهم ودعاؤهم لهم ودعائهم على أعدائهم	٣٥
- استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما	٤٢
- نكت مستفادة من هذا الخبر	٤٣
- استسقاء الصحابة برسول الله ﷺ بعد وفاته	٤٤
الفصل الثالث: حقيقة العبادة	٥١
الفصل الرابع: فساد المقارنة بين عبادة المشركين وتوسّلات الموحّدين	٧٥
جدول يبين الفرق بين توسل الموحدين ودعاء المشركين	٨١
الفصل الخامس: التبرك بآثاره ﷺ هو من باب اتخاذه وسيلة	٨٥
الفصل السادس: الكلام على حديث توسل الأعمى رواية ودراية	٨٩

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع: الكلام على حديث عرض الأعمال رواية	٩٥
الفصل الثامن: زيارة القبر النبوي المكرم والتوسل أثناءهـــا بين جمهور الأمة: المذاهب الأربعة، ومخالفيهم	٩٩
أدلة استحباب زيارة قبر رسول الله ﷺ	
أولاً: القرآن الكريم:	٩٩
ثانياً: السنة المطهرة	١٠١
ثالثا: الإجماع	١٠٢
رابعاً: القياس	١٠٣
زيارة القبر النبوي المكرم والتوسل أثناءها عند جمهور الأمة (المذاهب الأربعة)	١٠٤
أ- التوسل عند الأحناف	١٠٤
١- الإمام عبد الله بن محمود بن مودود الحنفي	١٠٤
٢- الإمام الكمال بن همام الحنفي	١٠٦
ب- التوسل عند المالكية	١٠٨
١- الإمام مالك	١٠٨
٢- ابن الحاج المالكي	١١١
ج- التوسل عند الشافعية	١١٣
١- الإمام النووي	١١٣

الموضوع	الصفحة
٢- حجة الإسلام الغزالي	١١٤
٣- الإمام شمس الدين الذهبي	١١٥
كلام حجة الإسلام الإمام الغزالي في التبرك بزيارة قبور الأنبياء والصالحين	١١٥
رأي الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز المعروف بالذهبي الشافعي المذهب ت ٧٤٨هـ	١١٥
د- التوسل عند الحنابلة:	١١٧
١- الإمام أحمد بن حنبل ﷺ	١١٧
٢- قاضي القضاة أبو الوفاء علي بن عقيل	١٢٠
٣- أبو عبد الله محمد بن عبد الله	١٢٢
٤- الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة	١٢٣
٥- قاضي القضاة شمس الدين محمد بن مفلح الراميني	١٢٣
٦- الشيخ منصور بن يونس البهوتي الحنبلي	١٢٤
متفرقات من نصوص السادة الحنابلة في التوسل والتبرك بالقبور من كتب الفقه الحنبلي المعتمدة	١٢٨
التوسل مع صلاة الاستسقاء	١٢٨
التبرك بالقبر المكرم	١٢٩

الموضوع	الصفحة
التبرك بالقبور عموما	١٣٠
تنبيه: التوسل بذات النبي ﷺ	١٣٠
إلحاق: الزيارة وحديث: « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»	١٣٢
الوجه الأول: (تقدير المستثنى منه: مسجد)	١٣٢
الوجه الثاني: (على السفر)	١٣٦
الوجه الثالث: (دلالة النهي ليست على التحريم)	١٣٧
الفصل التاسع: التبرك والتوسل بالأنبياء والصالحين في أفعال الرسول والصحابة والعلماء والمحدثين والحفاظ ممن ثبت عنه البرك والتوسل بالأموات	١٤١
١- مما فعله المصطفى ﷺ	١٤١
٢- صلاة أسامة بن زيد حبُّ رسول الله ﷺ ودعاؤه عند القبر النبوي المكرم	١٤٤
٣- صلاة السيدة فاطمة رضي الله عنها عند قبر عمها حمزة رضي الله عنه	١٤٥
٤- أبو أيوب الأنصاري والقبر النبوي المكرم	١٤٦
٥- سفر سيدنا بلال لزيارة رسول الله ﷺ وتمريغ وجه على قبره	١٤٧

الموضوع	الصفحة

٦- توسل الإمام الشافعي بالإمام أبي حنيفة عند قبره ١٤٨

٧- توسل الإمام الخلال شيخ الحنابلة بقبر موسى الكاظم ١٤٩

٨- توسل الإمام أحمد والحافظ أبي حاتم الرازي وغيرهما من الأئمة: بسلسلة آل البيت عليهم السلام ١٤٩

٩- استشفاء الحافظ عبد الغني المقدسي الدمشقي الحنبلي وتوسله بقبر الإمام أحمد بن حنبل ١٥٢

١٠- توسل أئمة السنة بروح الولي معروف الكرخي ١٥٢

١١- سقيا الله تعالى لمن استسقى بالإمام البخاري وقصد قبره متوسلاً به ١٥٥

١٢- تعظيم المجاورين للإمام البخاري والتوسل بهم تعظيماً له ١٥٦

١٣- خروج إمام أهل الحديث ابن خزيمة وجماعة من العلماء إلى قبر الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وتضرعهم عنده ١٥٦

١٤- ما رؤى من قبر أبي أيوب الأنصاري من البركة ١٥٧

١٥- مغارة الدم في جبل قاسيون بدمشق مظنة استجابة الدعاء ١٥٩

خاتمة ١٦١

المحتويات ١٦٢